

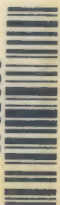
مؤرخون مصريون

من

عصر الموسوعات

يسرى عبد الفتى

0205846



Bibliotheca Alexandrina



المينة المصرية
العامة للكتاب

تاريخ الصين

(١٦٨)

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرهان

رئيس التحرير:

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

محمود الجزار

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



مؤرخون مصر يون

من عصر الموحسات

يسرى عبد الغنى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فروع الصحافة
٢٠٠٠

الإشراف الفني :

محمود الجزار

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب : « مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات » للأستاذ يسري عبد الغنى . وهو دراسة قيمة تناولت عددا من المؤرخين المهمين من عصر الموسوعات بالتعريف والتوضيح والتحليل ، وبعضهم أهمله التاريخ رغم أهميته مثل محيي الدين الكافيجي ، صاحب كتاب « المختصر في علم التاريخ » .

وقد بدأ المؤلف بالكلام عن المقرئ ، الذي وصفه بأنه تلميذ مخلص لفكر ابن خلدون ، وتعرض لسيرته ومؤلفاته بالعرض والتحليل ، خاصة كتابه تاريخ القاهرة ، الذي نعرفه باسم « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

كما تعرض لأبي المحاسن بن تغرى بردى ، ومؤلفاته ، خصوصا كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، ثم السخاوى ، خاصة كتابه « التبر المسبوك في ذيل السلوك » ، الذى هو تكملة لتاريخ المقرئ الشهير : « السلوك لمعرفة دول الملوك » .

كما تعرض المؤلف لابن اياس ، وكتابته الشهير : « بدائع الزهور في وقائع الدهور » وكذا كتاب « عقود الجمان في وقائع الأزمان » .

كما تعرض لعبد الرحمن السيوطي ، وكتابه : « حسن
المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » .

وتناول المؤلف مؤرخا عاصرا ابن تغري بردي ، وهو
عبد الباسط بن خليل الحنفى ، كما تناول أباه خليل بن شاهين .
ثم تعرض لحسن بن الطولوني صاحب كتاب « النزهة السنية في
ذكر الخلفاء والملوك المصرية » واختتمه بالمؤرخ المصرى
أحمد بن زنبيل .

وقد خاض المؤلف في سيرة هؤلاء المؤرخين بالعرض والتحليل
والنقد ، يوثقهم لحياتهم ومؤلفاتهم بمقدمة تاريخية مهمة تناولت
الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية في عصرهم ،
كما ألقى هذه الدراسة التاريخية ، وأمل أن يستمتع بها
القارئ .

والله ولي التوفيق .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

التاريخ

شعاع من الماضي

ينير الحاضر ، ويبني خطوات

القادم ،

تمهيد

لم يستطع سبقوط بغداد العباسية في الشرق ، على يد جحافل التتار الزاحفة ، ولا ضياع الأندلس في المغرب على يد الإسبان ، لم يستطع هذا أو ذاك أن يذروا الكيان العربي في وجه الرياح . حين اضطرب اللواء في أيدي الحكام والملوك تقدم العلماء فصانوا للعروبة ماضيها ، وجمعوا الرصيد الجافل لاثراء حاضرها ومستقبلها .

لقد تلقى المد العربي الزاحف أولى الضربات القاصمة التي جاءت من الشرق عام ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) حين سقطت بغداد حاضرة الخلافة الإسلامية في أيدي التتار ، واندكت معالمها تحت سنايك خيولهم ، وبطش جحافلهم الهمجية المدمرة ، التي فاقت قوة الطوفان الجارفة .

ثم تلقى ثانية الضربات القاصمة والبالغة بعد قرنين وما يقارب نصف القرن ، وكانت في هذه المرة من الغرب حين

أكره المسلمون على الرحيل من الأندلس المسلمة عام
سبعة وسبعين وثمانمائة من الهجرة تحت ضغط حرب الإبادة
الطاحنة من الأسباب والذي لم تكن وطلاته مبعث الخطر بقدر
ما كان ضعف المسلمين ، واختلاف كلمتهم هو العامل الجذري
والحاسم .

وتحت وقع الضربتين من الشرق ثم من الغرب ترنح المد
العربي وتعثرت خطواته ، واستحالت الامبراطورية الاسلامية
الكبرى غريسة للأطماع العادية من هنا وهناك ، ولقي
المسلمون بين بغداد وقرطبة من ألوان التمزق ، والاضطهاد ،
والغربة ، والعبث . ما يذكره اليوم ، وملء قلوبنا مرارة وألماً .

ويدافع طبيعي للخلاص من هذا الطوفان تحركت الجموع
الناجية من الشرق ، ثم من الغرب باحثه عن الأمان والاستقرار
في مصر أو في بعض مدن الشام والمغرب والتي ساعد وضعها
الجغرافي بعض الشيء على أن تكون بنبجاة من الأنهار السريعة
تحت الضربات القاصمة .

وفي القاهرة - كعبة الرحمة - ومن جديد أخذ المد
العربي المنحسر يجمع بقاياه ، ويلم اشتاته في محاولة للتساند
مرة ثانية ، لعله يمنع القضاء ، ويقوى في مواجهة الطوفان .

فى هذه المرة لم تكن الأشتات المتساندة من قادة الجند
ولا من رجال السياسة ، لأن هؤلاء فى ظلال المحنة الماحقة
كانوا أعجز من أن ينهضوا بالدور المصيرى الإيجابى ، ومن
ثم كانت الظروف التاريخية الواقعة تضع المسؤولية ، وتبوء
لدور العلماء الذين أسرعوا أيديهم فى إخلاص شديد ولهفة
صادقة ، تلم كل ما بعثه المغول فى الشرق أو الأسبان فى الغرب
من رصيدنا الفكرى والثقافى ، وتضم بعضه الى بعض لتصنع
البديل والعوض العلمى عن المجد التسياسى الذى ضاع ،
ولتضع منه قبل هذا سياجا روحيا وفكريا يحمى وجدان الأمة
ويصون جوهرها من التفتخ وتفتيتها من التفتت ، وأعماقها
من التحلل .

فى هذه الفترة المصيرية بين الضربتين ترددت فى قلب
عالمنا العربى الاسلامى عشرات الأسماء من كبار الأعلام الذين
فجرت المحنة فى وجدانهم العربى المسلم الواعى ، الوعى بحركة
التاريخ ، فشرعوا يجمعون ويوثقون كل ما بعثته الأحداث من
أمجاد أمتنا ، ومن تاريخ فكرها ، وشير رجالها ، ثم ارتقى
أخماسهم بالتاريخ فبحثوا فى فلسفته وفى رجاله ، وفى أسرار
حركته .

ويمكن لنا أن نقسم ذلك الى اتجاهين :

في الاتجاه الأول :

ظهرت المجاميع الضخمة والموسوعات الشاملة والتي كان
من أبرز رجالها :

● ابن أبي أصيبعة :

● (٦٦٨ هـ) صاحب طبقات الأطباء .

● صلاح الدين الصفدي :

● (٦٧٤ هـ) صاحب الوافي بالوفيات .

● ابن خلكان :

● (٦٨١ هـ) صاحب المختصر في أخبار البشر .

● الذهبي :

● (٧٤٨ هـ) صاحب تاريخ الإسلام .

● ابن شاكر الكتبي :

● (٧٥٤ هـ) صاحب فوات الوفيات .

● ابن حجر العسقلاني :

● (٧٥٢ هـ) صاحب الدرر الكامنة .

● المقرئ :

● (٨٤٥ هـ) صاحب الخطط .

وفي الاتجاه الثاني :

اتجاه فلسفة التاريخ ، وكانت المدرسة التي بدأت :

- بابن الطقطقى :

• (٧٠٢ هـ) فى كتابه الفخرى •

- وثنت بابن خلدون :

• (٨٠٨ هـ) فى مقدمته الشهيرة •

وراء هذين كان اتجاه الجمع الموسوعى الذى برز من
أعلامه :

- ابن منظور :

• صاحب لسان العرب •

- ابن فضل الله العمري :

• صاحب مسالك الأبصار •

- النويرى :

• صاحب نهاية الأرب •

• وغيرهم ... وغيرهم •

•
وواضح من هذه الاتجاهات فى البحث والتجميع ، ومن
هذا الجهد الدؤوب المتفانى ، ومن هذا التناج الرائع الذى
يعتبر - دون مبالغة - معجزة فريدة اذا ما قيس بأعمار القائمين
به وظروفهم كأفراد عزل من التأييد ومن مساندة الدولة ، واضح

من كل هذا كيف كان يتحرك الروح العربي الناجي من وجه
المغول والأسبان مدفوعا بالحرص على انقاذ ما يمكن انقاذه
من بين فكي المحنة المطبقة من الشرق ثم من الغرب ، وحرصا
في الوقت نفسه على استبقاء الوجود العربي حتى لا يخرفه
الطوفان .

وبوسعى أن أذهب وأقرر أن حركة أولئك العلماء في
مختلف اتجاهاتهم لم تكن صدى الانزال أو الرهبة الفكرية ،
أو الهروب من الواقع المظلم والامكانات في صميمها محاولة
أصيلة للمقاومة بالكلمة حين عزت في تلك الآونة المقاومة
بالجند والسلاح .

ان كل عالم من هؤلاء انما كان في الحقيقة بطلا من أبطال
المقاومة ، وكل وثيقة علمية ثمرة من ثمرات هذه المقاومة في
وجه هذه المحنة المظلمة ، انما هي الى جانب قيمتها العلمية
وثيقة صادقة من وثائق النضال .

ولعل في هذه النظرة ما يعطينا التفسير الطبيعي لصبر
هؤلاء العلماء ، وتبتلهم النادر للاستقصاء والبحث العلمي
الجاد ، فقد أعطوا من أعمارهم بسخاء منقطع النظير ، أعطوا من
ذوات أنفسهم ما تنقطع دونه أعناق الكثيرين من المعاصرين .

وقبل أن نعيش مع مجموعة من علماء عصر الموسوعات ، لا نجد مفرا من الجولان في هذه الحقبة : (سقوط بغداد — ما بعد سقوط بغداد — سقوط الأندلس — ما بعد سقوط الأندلس) وقد قصرنا هذا التجوال على معرفة أحوال عالمنا الاسلامي من الناحية السياسية ، ومن الناحية الاجتماعية ، ومن الناحية الدينية ، ومن الناحية العلمية ، كل ذلك بغية معرفة الظروف والأحوال التي عاش فيها علماء الموسوعات وكيف ؟ رغم الكم الهائل من السليبات التي غمرت هذه المرحلة ، كيف قاوم العلماء واقعهم واتجهوا مباشرة نحو هدفهم .



كان التجمع في القاهرة ، القاهرة المملوكية ، وفي بعض بلاد الشام إلا أن أكبر قوة استقرت في القاهرة وأعطت ثمارها رغم كل الظروف السياسية والاجتماعية والمذهبية .

الأحوال السياسية

عصر الموسوعات أو العصر المملوكي عصر ممتد حيواني (٢٧٧) عاما ميلاديا أي ما يقرب من قرون ثلاثة .

انه عصر الغرابة الحقيقية ، عصر بهيمة الفوضى وعدم الولاء ، وهو طابع المماليك العام ، فالعزل والتولية يخضعان للقوة

والسقوط ، فمن يملك يحكم ، والمؤامرات تحاك من الخصوم والأعداء معا ، والغدر يقع بالقائد المبرز بعد أن يحقق الانتصارات المجيدة ، ويقوم بالأعباء الجسام ، ويحسم المعارك الفاصلة لصالح أمته ، وإذا كانت المدينة الحديثة تكلل بالفخر والفخار صدر المتضر ، فالممالك كانوا غالبا ما يحكمون عليه بالموت غدرا ، وهو في أزهى ساعات مجده ، فقد قتلوا سيف الدين قطز بعد انتصاره التاريخي على التتار في (عين جالوت) الخالدة ، كما أنهم اغتالوا الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) قتلوه بعد استيلائه على عكا الفلسطينية آخر حصون الصليبيين ، وكان له دور عظيم في تاريخنا الاسلامي ... قتلوه ١٤ كيف تكون ضربة الغدر هي جزاء المكافح الناجح ؟

عصر غريب حقا ، كانت حالة البلاد الاسلامية في تلك الفترة من تاريخنا سيئة الى درجة كبيرة ، بل لا نبالغ اذا قلنا انها من أسوأ فترات العصور الوسطى ككل من الناحية السياسية ، فالبلاد عبارة عن ممالك واقطاعات صغيرة يحكمها أمراء من العجم والممالك ، ممالك تعاني من الضعف والحرمان ، تعاني من الفقر والجهل والمرض ، والخلافة في ذلك الحين ليس لها الا الاسم والرسم ، أما السادة الذين لهم السيادة

الفعلية فهم المتغلبون من العجم والمماليك ، يعزلون من يشاءون عزله ، ويولون من يريدونه •

والإدلة كثيرة على ضعف الخلافة الإسلامية ، وتدخل المماليك فى الأمور كلها ، وأن السلطة الفعلية ذات فى حوزتهم، يحركون السياسة فى البلاد وفقا لمزاجهم الشخصى.، ها هو ذا ابن كثير يحكى لنا أنه حدث فى سنة ٧٣٧ هـ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اعتقل الخليفة المستكنى بالله العباسى ومنعه من الاجتماع بالناس (حدد اقامته) ، ثم أفرج عنه بعد ذلك ، ولكنه ما لبث ان نفاه السلطان مع أهله وذويه الى بلدة (قوص) بصعيد مصر ، وبقي الخليفة بها الى أن توفى ، واستبد الملك الناصر بالأمر وحده الى يوم وفاته • ثم خلفه ابنه المنصور سيف الدين عام ٧٤٢ هـ • فبايع سيف الدين هذا أمير المؤمنين أبا القاسم أحمد بن المستكنى بالله •

ويصل ضعف السلطان (الأشرف خليل) أن غلمان أمير الاسكندرية يتحرشون بمبعوثه الذى أرسله من قبله ليجهز الاقامات لأجل قدوم السلطان ، ويستولى غلمان (بيدرا) أمير الثغر السكندرى على النهار ، وأدخلوه الحواصل ، ويحدث بين مبعوث السلطان وبين غلمان (بيدرا) شجار طاحن •

ويرسل المبعوث رسالة عاجلة بما حدث للسلطان الا أنه

يزيد على كل كلمة عشرة ، وأغلظ القول في حق بيدرا ،
وأثنى جراحاته عند السلطان حتى حرضه عليه .

وكان ذلك سببا - كما يذهب ابن اياس - الى زوال
الملك الأشرف خليل وملكه « ورب غش قد اتى من نصيح » .
ويصدر الأشرف قراره باستدعاء (بيدرا) ، وقت الظهر ،
فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام ، وقصد القبض عليه ، وتوعده
بكل سوء ، فتلطف بيدرا في الكلام ، حتى خرج بين يديه ،
فاجتمع بمناضريه من الأمراء ، واتفق رأيهم على قتل السلطان !!
وكان الأشرف خليل مولعا بالصيد ، فأعطى العسكر
دستورا بالتوجه الى القاهرة ، وخلا بنفسه ، فمضى العسكر
وجماعة من الأمراء ، وبقي السلطان في نفر قليل من المماليك
والخاصة .

فلما كان يوم السبت خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين
وستمائة ، ركب السلطان وانفرد وحده ، وليس معه سوى
أمير شكار ، أحمد بن الاشل .

فلما بلغ الأمراء ذلك ، ركب الأمير بيدرا ، والأمير لاجين ،
والأمير قرا منقر ، والأمير بهادر ، وجماعة من المماليك السلطانية ،
وشدوا في أوساطهم سيوفهم ، واقتربوا من خيام السلطان
فوجدوه وحده ، وليس معه سوى أمير شكار ، وبعض المماليك ،
فقالوا : « هذا وقت انتهاز الفرصة » .

فلما رأهم السلطان قاصدينه ، أحس ، وظهر له منهم الغدر ، فلما قربوا منه ، عاجلوه بالحسام قبل الكلام ، وكان أول من طعنه الأمير بيدرا ، النائب على الاسكندرية ، فضربه بالسيف على يده ، فصاح عليه الأمير لاجين ، وقال : « ويلك ، الذى يريد السلطنة يضرب هذه الضربة » •

ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه بالسيف ضربة قاتلة ، فوقع على الأرض فجاء اليه الأمير بهادر ، ونزل عن فرسه ، وأدخل السيف فى دبره ، وأطلعه من حلقه ، وصار كل أحد من الأمراء يظهر ما فى نفسه منه ، وتركوه ميتا فى الفضاء ملقيا على ظهره تأكله الطيور والحيوانات فى صحراء مصر الغربية •

هذا الغدر الانسانى يقع مع من ؟ مع الأشرف خليل الذى خاض المعارك تلو المعارك ضد الصليبيين فى الشام واثصر عليهم •

وبعد هذه الجريمة المعتادة يجمع المماليك على اختيار القاتل (بيدرا) سلطانا للبلاد ، ويصدر (بيدرا) أوامره باعتقال عدد كبير من المماليك ، لأنهم شجبوا وأدانوا مقتل الأشرف ، وتبعه المماليك الموالون للأشرف خليل فى كل مكان ، فهرب نحو الجبل ، وتمكنوا منه وقبضوا عليه ، ثم أحضروه فى حضرة الأمير كتبغا ، وانهال عليه المماليك بالسيوف ، فقطعوه ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وصار كل أحد من المماليك يقطع منه

قطعة ويأكلها ، من شدة قهرهم على أستاذهم الأشرف خليل •
وحز الأمير (كتبنا) رأس بيدرا وجعلها على رمح ، وأرسلها
الى القاهرة ، فطافوا بها ، ثم علقوها على باب بيته •

هذه صورة حزينة من صور الاضطراب السيامى فى هذا
العصر ، أو بالأحرى صورة للجانب الحزين فيه ، فلا تنسى أنه
عصر الموسوعات العلمية رغم كل هذه البقاع السوداء •

وننتقل الى سنة ٧٤٨ هـ حيث سلطنة المظفر حاجى ، هذا
الملك الطائش الذى كان مولعا بلعب الحمام ، فخرج فى ذلك
عن الحد ، حتى قيل : أنه اتفق خمسين ألف دينار على الحمام ،
فصنع لها خلاخل ذهب فى أرجلها ، وألواخ ذهب فى أعناقها ،
وصنع لها مقاصير خشب ، مطعمة بالعاج والأبنوس ، وأقام لها
غلمانا يكلفونها ، ورتب لهم فى كل شهر راتباً ، بسبب خدمة
الحمام ، فأقضى ذلك المال كله على الحمام •

ويعلق الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى ترجمته
للمظفر حاجى هذا ان الطيور عنده أهم من تدير الأمور ،
والتهى عن أمر الأحكام ، بالنظر الى الحمام ، فجعل السطح
داره ، والشمس سراجها ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه ،

وخالف من نهاه ، وخرج في ذلك عن الحد ، ولا صار يعرف
الهزل من الجد .

وكانت نهايته أن قبض عليه ، وأخذ ماشيا الى تربة عند
الباب المحروق ، فخنق في تلك التربة ، ودفن بها ، ولم يشعر
أحد من الناس به ، ومضى أمره بعد أن حكم سنة وأشهر ثلاثة
وثمانية عشر يوما .

ولا أدل كذلك على ضعف السلطات السياسية من تدخل
الأمراء والثوار في كل الأمور فقد تدخلوا في سنة (٧٤٧ هـ)
بقيادة نائب السلطنة في ذلك الحين في أمر المملكة وجمع الأمراء
حولهم ، ودعوا الى تولية السلطان حاجي بن الناصر محمد ،
وعزل أخيه الملك الكامل (سيف الدين) وكان لهم ما أرادوا
بالقوة ، بعدها فر الملك الكامل مع أنصاره ، وبعد أن قتل في
المعركة بعض الأمراء ، ثم أجلسوا السلطان الجديد على سرير
الملك . وسموه الملك المظفر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون
ولكنهم ما لبثوا أن غضبوا عليه - وتحزبوا ضده فخرج اليهم
في نفر قليل من أتباعه فقتلوه عام (٧٤٨ هـ) .

ونظرة واحدة على حكام هذا العصر والمدد التي تولوا
فيها الحكم نلمح مدى الاضطراب والفوضى الذي ساد هذا
العصر ، فقبل قلاوون تولى أيك (٦٤٨ هـ) ، على بن أيك

(٦٥٥ هـ) ، قطز (٦٥٧ هـ) بيبرس (٦٥٨ هـ) ، بركة خان
ابن بيبرس (٦٧٦ هـ) ، سلامش بن بيبرس (٦٧٨ هـ) .

وفي عهد قلاوون وابنيه خليل والناصر تولى قلاوون
(٦٧٩ هـ) ، الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٠ هـ) ، الناصر
محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى) (٦٩٣ هـ) كتبغ
(٦٩٤ هـ) ، لاجين (٦٩٦ م) الناصر محمد بن قلاوون
(سلطنته الثانية) (٦٩٨ هـ) ، بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ هـ) ،
الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة) (٧٠٩ هـ) .

ثم ينجى أولاد الناصر : أبو بكر بن الناصر محمد
(٧٤١ هـ) ، كجك بن الناصر محمد (٧٤٢ هـ) ، أحمد بن
الناصر محمد (٧٤٣ هـ) ، أسعاعيل بن الناصر محمد
(٧٤٣ هـ) ، شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ هـ) ، حاجي بن
الناصر محمد (٧٤٧ هـ) ، حسن بن الناصر محمد (٧٤٨ هـ) ،
صالح بن الناصر محمد (٧٥٢ هـ) ، حسن بن الناصر محمد
(سلطنته الثانية) (٧٥٥ هـ) .

ثم أحفاد الناصر : صلاح الدين بن حاجي (٧٦٢ هـ) ،
شعبان بن حسين (٧٦٤ هـ) ، علي بن شعبان (٧٧٨ هـ) ،
حاجي بن شعبان (٧٨٣ هـ) ، .

ثم سلاطين الماليك البرجية وهم : برقوق (٧٨٤ هـ) وفي
خلال سلطنة برقوق استطاع يلغا أن يتغلب عليه ويعيد للسلطة
حاجي بن شعبان المملوك البحرى لمدة عام واحد (٧٩١ هـ —
٧٩٢ هـ) ثم استطاع برقوق أن يستعيد مكاته ، فرج بن برقوق .
(٨٠١ هـ) ، عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨ هـ) ، فرج برقوق .
مرة ثانية (٨٠٩ هـ) العادل المستعين بالله الخليفة العباسى الذى .
أصبح سلطانا مع الخلافة (٨١٥ هـ) ، المؤيد شيخ (٨١٥ هـ) ،
أحمد بن المؤيد ولم يكمل العام فى الحكم (٨٢٤ هـ) ،
سيف الدين ططر (٨٢٤ هـ) ، محمد بن ططر (٨٤٢ هـ) ،
لم يكمل العام فى الحكم ، الأشرف بارسباى (٨٢٥ هـ) ،
يوسف بن الأشرف بارسباى (حكم ٩٤ يوما) (٨٤٢ هـ) ،
حقيق (تشقيق) (٨٤٢ هـ) ، عثمان بن حقيق (لم يكمل
العام فى الحكم) (٨٥٧ هـ) ، سيف الدين اينال (٨٥٧ هـ) ،
أحمد بن اينال لم يكمل أربعة أشهر فى الحكم ، (٨٦٥ هـ) ،
جشقدم (٨٦٥ هـ) ، بلباى (٨٧٢ هـ) ، تيمور بما (٨٧٢ هـ) ،
عزله خير بك وتسطن ليلة واحدة ، ثم زحف قايتباى واستولى .
على الجحكم فى (٨٧٣ هـ) ، محمد بن قايتباى الذى عزله
قانسوه وتولى بدله مدة ثلاثة أيام ، الظاهر قانسوه الأشرفى .
(٩٠٤ هـ) أشرف جانبلاط (٩٠٥ هـ) ، ثم حاول مملوك
يدعى طومان باى الاستيلاء على السلطة ولكن الأمر لم يستقر .

له ، حتى جاء الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ هـ) ، ثم جاء طومان باى (الثانى اذا اعتبرنا سلطنة الأول طومان باى) (٩٢٢ هـ) .

ان هؤلاء الممالك ليس فيهم الوازع الدينى القوى والدليل على ذلك تمثيلهم بجثث بعضهم ، والغدر ، والخيانة ، وجبك المؤامرات ، ومثال ذلك ما قام به كرجى مقدم الممالك ومعه مجموعة من عصابته وقرروا قتل السلطان (حسام الدين لاجين) الذى تولى السلطنة (٦٩٦ هـ - ٦٩٨ هـ) فتم لهم ذلك ، وقتلوا السلطان وهو يؤدى صلاة العشاء أمام وجه رب العالمين .

ما سبق أدلة قليلة لتتوقفا على مدى ضعف الخلافة المسلمة ، وتدخل الأمراء والسلاطين فى شئون الحكم وتوجيه دفعة الأمور لأغراضهم ومصالحهم الشخصية ، فالسلطة فى يدهم يولون ويعزلون كما يشاءون . كل ذلك وبلادنا الاسلامية مهددة بالغزو الأوربى من الغرب ، فقد أغار الأورييون الصليبيون على ساحل الشام ، ونزلوا به واستولوا على معظم مدنها الساحلية وأسقطوا حصون عكا وذبحوا من بها من المسلمين الأبرياء ، واقتحموا بيت المقدس الشريف وهدموا

أركاناه ، وفعلوا به من المنكرات ما لا يتفق مع أى عرف أو أى دين أو عقيدة ، و انتهكوا الحرمات فى الحرم المشرف الذى أسرى اليه رب العالمين برسول المساواة والعدل والحق صلى الله عليه وسلم .

كما كانت أطراف معمورتنا الاسلامية من ناحية الشمال مهددة بغزو تترى همجى ، أغاروا علينا وأسقطوا بغداد عاصمة الخلافة ومقرها عام (٦٥٦ هـ) على يد همجى يدعى « هولاكوخان » واستولوا على بغداد الاسلامية ، واستعملوا فيها أعمال التخريب والتدمير والقتل حتى صارت بغداد فى ذلك الوقت بحرا من الدم من كثرة القتلى ، حتى ليقال : ان هواءها قد فسد ، ورائحتها قد تغيرت من كثرة الجيف الملقاة على قارعة شوارعها ، والتي لم تجد من يدفنها ويدارئ سوءاتها ، كما يزوى ابن كثير فى « البداية والنهاية » .

وقبض (هولاكو) حفيد جنكيز خان على الخليفة العباسى المسلم بعد أن قرر إبادة العاصمة المسلمة لرجاله مدة أربعة أيام ، ثم قتل الخليفة العباسى نفسه ، ووراءه الكثير من أفراد عائلته ، قتل الخليفة أهله أو أغرقهم كما يقولون بدلا من السبى والاذلال ، وزالت الخلافة العباسية ، وغربت شمسها فى مشهد حزين أخرجه للوجود التنزق العربى والتطاحن من أجل الأهواء والزعامات الزائفة .

ومن بغداد زحف (هولاكو) الى الشام ، واحتل حلب
السورية وأعمل السيف دون رحمة في خمسين ألفا من سكانها
الأمنين ، ثم احتل حماة دمشق وعقد معاهدة مع انطاكية
المسيحية الصليبية للتعاون ضد المسلمين .

وكانت الحروب مستمرة بين أهل الاسلام والتتار من
جهة ، وبينهم وبين الصليبيين من جهة أخرى ، حتى أن دمشق
العاصمة السورية قد سقطت يوما في أيدي التتار فاستعملوا
فيها أعمال التخريب والقتل بشكل مريب ، وهدموا بعض
المساجد ، وفعلوا بها المنكرات كما يروى ذلك ابن اياس في
تاريخه ، وابن كثير في « البداية والنهاية » ولكن من حسن
حظ المسلمين ، أن الجيش المصرى تزعم اجتماع كلمة المسلمين
ووجد الصفوف ، وهزم التتار هزيمة منكرة في عين جالوت
وبيسان (٦٥٨ هـ) في شهر رمضان ، والحق يقال : ان المماليك
قد أظهروا شجاعة بالغة ، وكانت القيادة لقطز سلطان مصر
وبجواره (بيبرس) وقد روى ابن تغرى بردى في نجومه الزاهرة
تفاصيل هذه المعركة ، كما فصل ابن كثير أحداثها ، كذلك
ابن اياس .

وقضى الله بقدرته سبحانه على الصليبيين ، بعد أن هزمهم
الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون وأخرجهم من بلاد

الشام دون رجعة وكفى الرحمن المؤمنين شر هؤلاء القوم
الفاشين (راجع : أبو المحاسن ، وابن كثير ، وابن اياس) .

وفى ذلك الحين كانت الخلافة العباسية نقلها بيبرس الى
مصر ، وكان أو خليفة بويج بها هو الخليفة المكنى (بالمنتصر
بالله) أبو القاسم « أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر » بايموه
بالخلافة المسلمة عام (٧٥٩ هـ) وبعد أن شغل الخلافة أكثر من
ثلاث سنين الا أن خلافته هذه لم قدم طويلا ، فعزل ، وبويج من
بعده الحاكم بأمر الله أبو العباس « أحمد بن المسترشد بالله
العباسي » عام (٦٦٠ هـ) .

وهكذا نجد أن حياة المسلمين فى ذلك العصر كانت مليئة
بالمصائب والأحداث الجسام التى روعتهم وأضنتهم ، ووقع
فى قلوبهم أن مصدر ذلك كله ، انما يعود الى اتقسامهم
وخلافاتهم ، وتطاحنهم فيما بينهم ، وتفرق كلمتهم بسبب انحرافهم
عن تعاليم الدين ، لذلك تهيأت أذهانهم لقبول الفكر الموسوعى
وما صاحب معظمه من دعوات اصلاحية جديدة ، تدعو الى بذ
البدع والأوهام والأباطيل ، وتدعو الى الوحدة ونبتة الخلاف .

وفى ذلك يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق فى كتابه
« فيلسوف العرب والمعلم الثانى » ما نصه (ص ١١٩) :

(كانت الدولة الاسلامية هما مما أصابها من أثر الخراب المغولي ، فأصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب الى اصلاح الاسلام بالرجوع الى السنة التي كان الخروج عنها مدعاة لغضب الله) •

وهذه الحالة هي التي دعت رجلا مثل الامام الشائر « ابن تيمية » ومن بعده « ابن القيم » تلميذه النجيب ، دعتهما الى القيام بدعوة اصلاحية شاملة ، والتمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه أفضل صلاة وأصفي سلام ، دعوة أساسها نبذ الخلاف الأجوف ، والجدل البيزنطي العقيم والسفسطة الخاوية المتحذلقة القائمة بين المسلمين بمختلف مللهم ونحلهم ، دعوة لتوحيد المذاهب الفقهية والكلامية ، وأعلن كل من الرجلين ان السبب الجوهرى في انحصار المد المسلم وضعفه وتفرق كلمته ، انما هو الخلاف الحادث بينهم •

عصر غريب حقنا : الأعمام والاحوة القتلة ، والخونة واليائسون يتسولون الأمان من غبيدهم : ومن أعدائهم على السواء ، وبدؤ الصحراء يتحولون من قطاع طرق مطاردين الى جيش احتياطي مخيف يهزم ويحطم أكبر أداتين عسكريتين عرفهما العالم في القرون الوسطى : الصليبيين والتتار في أقل من عشرة أعوام ، ثم يعودون كما كانوا قطاع طرق مطاردين •

أشقاء وأصدقاء يتبادلون القتل والخيانة والجورى
والعروش ، أطفال يولون السلطنة ويعزلون وسط أطقم كاملة
من ضواري الرجال الطامحين ، ومدن تقام وأخرى تهدم
أو تأكلها النيران بيد سكانها أو أعدائها لا فرق ، وشعراء
يتباهون بخدمة العبيد ، ويهدون بأنفسهم أمجاد أمتهم
للعييد ، وفقهاء يحاولون قدر الطاقة منطلقين من نصوص دينهم
الخالد .

وفى رأينا أن بطولة بعض الممالك في حاجة الى اعادة
نظر فورية وحاسمة ، نعم نحن نأخذ سيرة هؤلاء من مؤرخين
كبار فى عصرهم ولكن أكثرية هؤلاء غالبا ما يكون من أبناء
الممالك أنفسهم كإبن تغرى بردى أو ابن إياس ، أو من المقربين
اليهم العاملين فى دواوينهم كالمقرئى ، وقد صنعوا ما صنع
الشعراء الشعبيون أحيانا وخاصة فيما يتعلق بحياة بيرس
البندقارى الركنى الصالحى .

ونعتقد أن سيرة الظاهر قد تم تأليفها أو تأليف هيكلها
بتكليف مباشر من بعض دواوين الدولة الظاهرية نفسها ، كجزء
من عملية الدعاية المنظمة لشخص الظاهر وتأليف القلوب بقوله :
بعد قتله البشع لصديقه وزميله قطز واستيلائه على العرش .
عقب القضاء بقيادة قطز على التتار فى عين جالوت ويسان .
ونحن نعتقد رأيا آخر هو أن سيرة بيرس ربما تكون

قد خضعت لتعديل من بدايتها في عصر قلاوون لاقناع الناس بأن قلاوون الألفى كان زميلا لبيرس وقطر ، ومساويا لهما في المكان على الأقل منذ عصر الصالح نجم الدين أيوب ومعركة المنصورة ثم الحرب ضد التار والافاى شئ يمكن أن يقنع الناس بشخصه بعد أن سكت على مقتل قطز بيد بيرس وما كان له أن يتكلم ، ثم يتأمر قلاوون على أبناء ولى نعمته بيرس الذى جعله أتايكا ونائبا للسلطنة ، وزوج ابنه الأكبر من ابنة قلاوون لكى يضمن لابنه سبدا قويا من بعده ، بل ان بيرس يكاد يكون هو المكتشف الحقيقى لقلاوون الذى يبدو من سيرته أنه كان حدثا مهما لا وزن له أيام المنصورة ، فلا يكاد اسمه يذكر فى أحداثها وما تبعها حتى عين جالوت الى أن يرقه بيرس الى رتبة مقدم ألف

وقطر هو الآخر فى حاجة الى إعادة نظر : متاورته المتعددة المراحل والمستويات (من المناورة بين زوجتي أليك شجرة الدر وأم على ، والمناورة بين القلعة - بكل تناقضاتها - وبين العلماء ومن ثم العامة ، والمناورة بين بدو الشام والأردن وبدو مصر وبين بقايا بنى أيوب فى دمشق وحمص وحماء ، بعد أن شارك بما لا يقبل الجدل فى قتل أقطاي بنفسه وتخويف زملائه الصالحة لارغامهم على التسليم أو الفرار وهو ما حدث بالفعل

قبل أن ينفرد بابن أيبك الصغير ليصبح أتابكا ثم يخلعه ليصبح
سلطاناً) •

الحقيقة أن قطز الرصين العاقل والذي يعتقد البعض أنه
لا يتورط الا بمقدار وينصح لوجه الله بما يؤهله لقيادة كل
خصومه ، وخصوم بعضهم البعض في النهاية لمواجهة العدو
المشترك ولا ينشغل بأى حام وانما بما يتاح أمامه فحسب ،
ولا تفهم تورطه في قتل أقطاي الا لنوازع طيبة معناها : قطع
دابر العداء الداخلى حتى يمكن التفرغ لبناء وحدة قوية
ولو مؤقتة لمواجهة الخطر الماحق القادم •

لقد كان منطقيا أن يشارك في قتل توران شاه ، أو أن يقتل
أيبك أو يساهم في التحريض على قتل شجرة الدر •

والحقيقة أن قطز يبدو فى تاريخنا كأنه « سيد المتآمرين »
ومدير المكائد الحربية والدموية - بصرف النظر عن نبل
مقصده النهائي وهو مقاتلة التتار وردعهم ، بينما يبدو يبيرس
مساويا لقطز فقط في عدد قتلاه : كان يبيرس قد قتل أو شارك
فى قتل توران شاه ثم قطز ، لكن قطز قتل بيده أقطاي ،
وتغافل عن حماية سيده أيبك الى أن قتله شجرة الدر ، ثم
أسلم شجرة الدر الى ضرثا لكى تقتلها ، ثم كل هذا بينما هو
ماض فى تحسين صورته أمام العامة من خلال توثيق صلاته

بالعلماء والصوفية وعلى رأسهم العز بن عبد السلام ، الصعدي
الشديدة السطوة الذي يبدو أنه كان يكره البدو كراهه
للصليبيين أو التار • III

لقد تجاهل التاريخ المملوكي شخصيات كان لها أكبر
الدور كمحاربة مثل : سنقر الأشقر ، وبلبان الرشيدي وغيرهما
ممن يبدو من أدوارهم السياسية أنهم لم يكونوا يقلون عن
أقطاي ومكاته ، ولكنهم بالطبع لم يتفوقوا على قطز في
مناوراته !!

لقد تجاهل التاريخ المملوكي أيضا دور الشعب المصري
المقاتل حيث تجمع مائة ألف مقاتل تجمعوا تلبية نداء الواجب
تحت لواء قطز في عين جالوت ويسان ، وقبلها تجمع أربعون
ألفا تلبية لنداء الكامل عند حصار دمياط الأولى ثم أكثر من
سبعين ألفا تجمعوا للدفاع عن المنصورة •

هؤلاء الأبطال الميامين لا يذكرون إلا عرضا عند
المقريزي • وكان يحق لكل مؤرخي هذا العصر أن يذكروا
بحروف من نور الفخار دور شعبنا في هذا النضال •

ان التاريخ المملوكي في حاجة الى تنقية فطومان باي لم
يفقده والده وهو صغير ، ولم يقض الأب عمره باحثا عن ابنه
ثم لا يعثر الأب على ابنه المملوك السلطان (طومان باي)
الا معلقا مشنوقا على باب زويلة •

ولم يكن كذلك لقلاوون أب يبحث عنه ، لأن النخاسين اختطفوه صغيرا ، فإراه الأب في القاهرة قلاوون ، ويجده أميرا مهاجا قريبا من السلطان ينتظر دوره في السلطنة ويتأمر مع المتأمرين ، الى أن يتخلى عنه قلاوون دون أن يعترف بأنه أبوه حقا خسنية أن يقال وهو الأمير القريب من العرش ، ابن خادم آسيوى فقير . ولكنه يعود فيعترف لزملائه كلهم بأن الرجل أبوه ، بعد أن يكون الرجل قد مات بالفعل . وهى لحظة شهامة قلاوونية غير مفهومة . كل ذلك محض ادعاء لا علاقة نه بالتاريخ الحقيقى ، نفس الأمر بالنسبة لقطز لم يكن ابنا لجلال الدين آخر سلاطين الخوارزمية الذين نكبهم التتار ، ولا علاقة له بهذه الأسرة ، ولكنها محاولة دعائية كى تجعل لقطز الحق الشرعى فى عرش مصر ، وحقا لاهوتيا فى هزيمة التتار .

الحالة الاجتماعية

الحالة الاجتماعية فى أى مجتمع ما هى الا صدى مباشر لأحواله السياسية والاقتصادية والفكرية اذن ليس لنا مقدما أن توقع حالة اجتماعية طيبة مستقرة ثابتة ، بعد كل ما قدمنا من سوء الحالة السياسية ، وما كان فيها من فوضى وقلقل واضطرابات وصراعات ، وتنازع وشقاق ، فقد أدى تنازع الأمراء المسلمين فيما بينهم ، وقتل الخلفاء والتشثيل بهم ، وكثرة

الغارات على البلاد الاسلامية ، أدى ذلك الى اضطراب الحالة الاجتماعية في البلاد المسلمة : ووجود تيار جارف من الخوف والرعب في نفوس الناس بحيث أصبح لا يطمئن أحد على نفسه أو ماله أو عرضه أو أهله ولا يطمئن على يومه أو غده أو مستقبله ككل .

وحدث الجذب والقطط وانتشر الفقر المتقع في أنحاء البلاد ، حتى أن المصريين كانوا يحفرون الحفرة ليضعوا فيها هزال الناس ، من شدة الجوع ، ويحفرون اللحود لدفن الموتى جوعاً ، بسبب شح الطعام ، وارتفاع الأسعار بشكل جنوني ، وندرة الأقوات وقلة المحصول الزراعى الذى سببه الجذب ، وشن الغارات والحروب الداخلية هكذا يحدثنا (ابن كثير) ومن حديثه نأخذ أدلة كثيرة على سوء الحالة الاجتماعية :

— ففى سنة (٦٩٥ هـ) حدث قحط شديد فى ديارنا المصرية ، وارتفعت الأسعار فى جميع البلاد الاسلامية : مصر والشام ومكة والمدينة ، حتى بلغ الرطل الواحد من اللحم سبعة دراهم ١١ وحتى يبع الفروج الواحد بخمسة عشر درهماً ، والبيضة الواحدة بأربعة دراهم ١١ ، واشتد الأمر على الناس وضائق بهم السبل . ١١

— وابن اياس يقول لنا : أن الأمر اشتد بالناس وحزبهم فأكلوا الكلاب والحمير والخيول والبغال ولم يبق من الدواب

شيء عند أحد من الناس ، وبيع الكلب في ذلك الوقت بخمسة دراهم أى ما يساوى ثمن بيضة أو رطل من اللحم !!!

— وما زال (ابن كثير) معنا يحدثنا عن الرمادة والقحط في ذلك العهد الغريب العجيب فقد حدث في عام (٧١٨ هـ) أن قل المطر في بلاد الجزيرة الموصلية ، فحصل الجذب والقحط ، وارتفعت الأسعار فاشتد الغلاء ، وعمدت الأقوات بحيث أكلوا كل ما وجدوه من الجمادات والحيوانات ، ومن قلة الأموال التي يشترون بها ما يسدون به رمقهم باع الناس كل شيء يملكونه حتى أولادهم وأهلهم ، وبيع الولد في ذلك الحين بخمسين درهما بل وبأقل من ذلك اذا ساوم المشتري !!

— سيطر العوام واللصوص على الموقف تماما وتفاقم أمر العامة واللصوص وقطاع الطرق ، وانتشر السلب والنهب في البلاد وذاع الخراب والسرقات ، ففي سنة (٧٤٢ هـ) نادى واحد من الأمراء المماليك العوام والعسكر ، وأمرهم بنهب ميت الاتابكي (قوصون) فدخل العوام بيته ، وأحرقوا باب داره ، ونهبوا كل ما في اصطبله من خيل وبغال ، وسرقوا ما عنده من السلاح والنحاس والطعام وغير ذلك ، و (قوصون) ينظر اليهم من نافذة داره في ذهول واستغراب وان كان استغرابه ليس في محله ، فذلك سلوك مملوكى معتاد ،

ولكنه لا يملك لنفسه دفعا ، وقد خاطب أحد الأمراء بقوله :
يا مسلمين أما تحفظون هذا المال الذى تنهبه العوام ، أما أن
يكون لى أو للسلطان ! فقالوا له : ان الذى معك من الأموال
والتحف يكفى السلطان ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ،
بل هجم عليه بعض الأمراء ، واعتقله وسرعان ما خلعوا الملك
الأشرف (علاء الدين) فى ذلك الوقت ، وولوا بعده الملك
الناصر (شهاب الدين أحمد) عام (٧٤٢ هـ) •

ويؤكد المقرئى فى السلوك (ج ٤ ص ٧٤٥) أن
علاء الدين كان ممتازا ، وكان موضع حب الجميع حتى أن أباه
(قلاوون) فكر فى توليته السلطة بدله وهو على قيد الحياة ،
ويقال أن أخاه خيلا نفس عليه هذه المكاة ففس له السم
فمات ، ولم يعين قلاوون خيلا وليا لعهده لهذا السبب ، وقال
عندما عرض عليه هذا الأمر : أنا ما أولى خيلا على
المسلمين • كما أن قلاوون لم يول ابنه الثالث لصغر سنه ،
وترك الأمر لقادة المسلمين ، وهو موقف طيب يجنب قلاوون
فى الميزان ، ولكن السلطة بعد قلاوون آلت على كل حال
لابنه خليل (الأشرف خليل) الذى كان له دور عظيم فى القضاء
على الصليبيين •

— لقد أتى على هؤلاء السلاطين يوم كان الواحد فيهم
يوكل به من يمنعه من اللعب مع أولاد العوام كما يقول صاحب

بدائع الزهور (٣/ ٣٣٧) • ومنهم من أقيم في الحكم وعمره سنة واحدة ونصف !! ومن المضحك ان اسمه كان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد ! (خطط المقرئى ١٠٣/٣) •

وهذا الحال ولاشك لا بد له من أن يطمع الرعية بعضها فى بعض ويعين على ذبوع الخوف والاضطراب وهذا ما حدث •

ففى يوم الجمعة ١٢ رمضان ٨٦٣ هـ كما يقول ابن تغرى بردى : نهبت العبيد والماليك الأجلاب النسوة اللاتى حضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ، وأفحشوا فى ذلك الى الغاية وكل مفعول جائر (النجوم الزاهرة ١٩٨) •

لقد اتسمت الحالة الاجتماعية فى تلك الفترة بسممة التفكك وعدم الترابط ، اذ انقسم المجتمع الى طبقات متباينة •

الطبقة الاولى :

هى طبقة السلاطين والأمراء • وكلها من الماليك فقد كان الشعور المسيطر عليهم أنهم الطبقة الرائدة الممتازة • لما يتمتعون به من كفاءة عسكرية تجعل كل مطلوب لهم قريبا حتى لو كان الملك • لذلك فقد استحوذوا على كل امارات الحكم من امارة ،

ونظارة ، ومملك • فلقد كانت الأرض الزراعية وهى مصدر
الثروة الأول فى الدولة حينذاك اقطاعيات بين هؤلاء - يستأجر
السلطان وكبار الأمراء بأجودها وأكثرها خصوبة ، فى حين
يأخذ الممالك أوسطها خصوبة • وتقطع أجناد الحلقة والعربان
والتركيمن الدرجة الثالثة منها كما يذهب أستاذنا د. سعيد عاشور
فى كتابه (العصر المملوكى فى مصر والشام) •

الطبقة الثانية :

طبقة العلماء والفقهاء • وهذه كانت تتألف من أرباب
الوظائف الديوانية ، والفقهاء ، والعلماء والأدباء ، والكتاب •
وكانت تلك الطبقة أحسن حالا من الطبقة التى تليها •
فقد كان يدهم أمور القضاء ، والتدريس ، والفتيا ، والخطابة ،
وكتابة الدواوين والمراسيل •

وقد كان هؤلاء العلماء يمثلون فى ذلك الوقت حكومات
الظل أو الحكومات الخفية لما كانوا يتمتعون به من اجلال
وتقدير من العام والخاص • ولذلك خشيم الأمراء فأعقدوا
عليهم الأموال الطائلة ، ويعملون لهم كل حساب • على أن هذا
لم يمنع بعض السلاطين من الطمع فيهم ، وضرب بعضهم ببعض
فقد خلع ابن حجر العسقلانى أكثر من مرة ، وأرجع اليه بدلا
من قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى ، وخلع البلقينى ،

وتولى بدلا منه السفطى كما يقول صاحب النجوم الزاهرة
• (٣٧٣/٥)

ومرد ذلك ليس الاستخفاف بل هو الخشية •

يدلنا على ذلك أن الواحد منهم حينما كان يعزل العالم
أو القاضى يستر ظلمه ، وجوره مدعيا انه يحرض على نفع عالم
غيره وخدمته • بل ان أحدهم لم يجد ملجأ يلجأ اليه من لوم
القضاء ورجاله سوى اعلانه أن تصرفه هذا كان بمشورة
الشيخ جلال الدين السيوطى • يقول ابن اياس •

« ومن الحوادث ان الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز
عهد للشيخ جلال الدين السيوطى بوظيفة لم يسمع بها قط ،
وهو أنه جعله على سائر القضاة قاضيا كبيرا ، يولى منهم
من شاء ، ويعزل من شاء ممالك الاسلام ... فلما بلغ القضاء
ذلك ثقب عليهم ، واستخفوا عقل الخليفة على ذلك .. فلما
قامت الدائرة والأسئلة على الخليفة رجع عن ذلك • وقال :
ايشن كنت أنا ؟ الشيخ جلال الدين هو الذى حسن لى ذلك :
وقال : هذه كانت وظيفة قديمة » • (بدائع الزهور ٣/٣٦٠) •

الطبقة الثالثة :

طبقة التجار : وكانوا يؤلفون طبقة تسامت على طبقة
السلطين والأمراء • وذلك لكونهم أقدر الناس ماديا على مد

السلطين بالمال فى أوقات الحرج والشدة • وقد حظيت هذه الطبقة من المال بقدر وفير لما كانت تتمتع به مصر من وضع تجارى فريد • اذ كانت حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب •

غير أن هذه الطبقة لم تنج من ظلم الملوك والأمراء مثلما ظلم العلماء • وذلك بفرض ضرائب باهظة عليهم ، وبالسطو جيرا على خزائهم وأموالهم ومتاجرهم • الأمر الذى أفقدهم لذة الشعور بصفو الحياة • فكان كثير منهم يدعو على نفسه أحيانا : « أن يفرقه الله حتى يستريح مما هو فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيه » • (العصر المملوكى ، د • سعيد عاشور ٣١٢ بتصرف) •

الطبقة الرابعة :

طبقة الشعب الحقيقية : طبقة الفلاحين ، والعوام من أرباب الحرف ، والصناعات ، والسوق ، والباعة ، والمعلمين ، والسقائين •

ولقد عاشت هذه الطبقة فى ضنك وعسر دائم بالقياس الى غيرهم ممن سبقهم من ممالك أو تجار أو علماء • وكان حظهم من حكوماتهم كل الاهمال والاحتقار • اشتهر بينهم الفقر والجهل والمرض ولم يشعر الحكام بهم • كذلك لم يعطهم كتاب

التاريخ حقهم من الحديث عن أحوالهم ومعاناتهم رغم أنهم نبض الأمة الحقيقي ، فهم أبطال المنصورة ، ودمياط ، وعين جالوت وبيسان ، هم الجيش الشعبي أو الفداوية الذين قضوا على أعتى قوتين متحالفتين ضد الاسلام والعروبة أقصد التتار وأدعياء حماية الصليب •

كان حظ هذه الطبقة من الحكومات المملوكية الالهمال والاحتقار • ولا أدل على ذلك من أن كلمة (فلاح) كانت تعنى شخصا ضعيفا ذليلا ، مغلوبا على أمره •

ولعل السبب في ذلك كما يرى د. سعيد عاشور • ما كان يعامل به الفلاح ، وما كان يفرض عليه من ضرائب باهظة أتت أحيانا على محاصيله كلها وأرزاقه ، مما جعل بعضا منهم يترك الزراعة ، ويخترق تحت وطأة الحاجة الشديدة السلب ، والنهب والسطو للحصول على قدر من المال يستعين به على مساومة غيره من الناس •

الا أن غالبية المزارعين قاموا بفلاحة الأرض يتسلحون بالصبر على ما يحيطهم من سياج الحرمان والفقر • فالفلاح المصرى بل العربى ظل دوماً مربوطا الى الأرض الأم التى يفنى حياته فى خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها • وقد تعرض الفلاحون لكثير من العنف من جانب الحكام من ناحية ، ومن جانب الأعراب الذين يجبروا وطفوا عليهم دون

رأى لهم ، حتى « خربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين
وتشردهم في البلاد » • (المقریزی : اغانة الأمة / ٣٦) •

وكانت الأرض تزرع مرة واحدة في السنة عقب الفيضان ،
لأن البلاد لم تعرف في ذلك العصر غير رى الحياض ، كما أن
الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة والرى الا أدوات عتيقة
من أيام الفراعنة •

هكذا كان حال المجتمع في ذلك العصر ، عصر اضطراب
بالإضافة الى ما حملته لهم الأيام من شدة وآلام وحدوث مجاعات
في أحياء كثيرة مردها القوضى والاضطرابات وانعدام الأمن
وانخفاض منسوب المياه في نهر النيل ، مما أدى الى تلف
الحرث ، وجفاف الضرع ، وشح الأقوات ، وذبوع أوبئة
وطواعين •

ولعل من أسباب ذلك كما يذهب شيخنا / ابراهيم
الأيباري في دراسة ضافية له عن هذه الفترة نشرت بمجلة تراث
الانسانية (٢ / ١٣٥) : انصراف الحكام في كثير من الأحوال
عن تدبير أمور رعيتهم •

الطبقة الخامسة :

ينبها ده أحمد شلبي في الجزء الخامس من موسوعة
التاريخ الاسلامي (ص ٢٢٣) الى طبقة أخرى ظهرت في

المجتمع المصرى فى مطلع هذه الفترة وهى « طبقة طوائف التتار التى فرت من حكم قاداتهم ولجأت الى مصر تحتوى بها وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الاسلامى وتعودت على أخلاقه وقد رحب بهم سلاطين المماليك وبخاصة الظاهر بيبرس رجاء أن يتخذهم أعوانا له وينتفع بما عرف عنهم من قوة وشجاعة ضد منافسيه فى الداخل وأعدائه فى الخارج ، وقد أسكنهم حى (الحسنية) وكان فيهم جمال (رائع ١١) مما جعل هذا الحى يشتهر بالجمال . » .

أما الذى لم يذكره د. شلبى فهو أن الأمراء المماليك كانوا يتصارعون فى عنف على شباب (الأويرائية) الذين كانوا يقيمون بحى الحسنية للممارسة الجنسية الشاذة ، كما كانوا يجنون الضرائب من ضامانات المغانى ، وكن بمثابة قوادات رسميات معترف بهن من جانب الدولة ١١

الخلاف المذهبى

من سمات هذه الفترة النزاع المذهبى والخلاف الدينى بين مختلف الفرق الاسلامية والتى كانت تتطاحن فيما بينها والتى جرت على البلاد الاسلامية الكثير من الولايات والمصائب .

ومن الأدلة على الخلاف المذهبي الذي جر البلاد الى الخراب والدمار ، ما حدث في عام (٦٥٥ هـ) الفترة التي تولى فيها (على بن أيك) من الخلاف المذهبي بين أهل السنة والرافضة (الشيعة) ، والحرب التي وقعت بين الطرفين وكانت فيها الغلبة لأهل السنة على الرافضة ، وحنق الرافضة على السنة واشتد حنقهم . حتى أن الوزير (ابن العلقمي) وكان رافضيا متعصبا أجرى محادثات سرية مع هولاء قائل التنازع واستعداه على مصر والشام والعراق بل سلمه كل أسرار البلاد ، واستجاب أحق التنازع الآن ذلك وافق مراده ، وكانت الكارثة المؤلمة بسقوط بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية ، وقتل الخليفة وزوال الخلافة ومقرها من بغداد ، وصيروها بحرا من الدم لكثرة ما قتل من الأطفال الأبرياء ، والنساء على يد هؤلاء البرابرة .

وهل أدل على ذلك الخلاف المذهبي مما حدث بين ابن تيمية الحراني وقضاة عصره من الشقاق والخلاف الذي أدى بهؤلاء العلماء الى رفع أمره الى السلطان متهمين الرجل بالكفر وخروجه على أجماع الفقهاء ، وذلك بسبب ما نشره في كتابه عن (العقيدة الوسطية) والذي كان عبارة عن رد مطول على خطاب وصله من أحد العلماء في (واسط) سأل أن يبين له عقيدة أهل السنة ، وجمع السلطان ثلاثة مجالس عاجلة لمحاكمة

ابن تيمية وبعد مناظرة تاريخية رائعة من ابن تيمية لعلماء عصره وللأغضاء في مجالس المحاكمة سجلها لنا ابن تيمية في كتابه (المناظرة في العقيدة الواسطية) ورغم ذلك سجن الامام.

حتى تاج الدين السبكي صاحب كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) والمطبوع في ستة مجلدات (ت ٧٧١ هـ) وشارح مختصر ابن الحاجب ومنهاج الوصول للبيضاوي وأكبر خصوم ابن تيمية ، هذا الرجل انقسم العلماء في أمره منهم من يؤيده ومنهم من يهاجمه ويعارضه ، وصار السلطان يصلح ويوفق بينهم فيزاد خلافهم حتى أن السلطان خاطبهم بقوله : (لقد كنا يختلف فنحتكم الى العلماء ، واليوم يختلف العلماء فيحكمون الهبل) وبالطبع يقول السلطان ذلك شماتة في العلماء ، ومن صالح السلطان وأي سلطان أن يختلف العلماء كي ينشغلوا بخلافاتهم عن معرفة تجاوزات الحكام واصلاح حال الراعي والرعية .

لقد كثرت المذاهب المختلفة في هذا العصر ، وتعددت الفرق الكلامية ، فقد انتهت الى هذا العصر كل الثقافات الاسلامية دينية وفلسفية ، وعرف كل ما بذله رجال الدين والفلسفة من محاولات في حل المشاكل الاعتقادية .

فدعا ذلك الخلاف بين المذاهب طائفة من المفكرين ، الى
أن يدرسوا هذه المذاهب المختلفة وهذه الفرق المتباينة ، وأن
ياخذوا من بينها الصحيح الموافق للكتاب والسنة الصحيحة في
نظرهم ، ويتركوا الزائف الباطل .

وقد يرى البعض ان الخلاف في الرأي والاتجاه ظاهرة
صحية وشيء عظيم ان تتعدد الأفكار والآراء والمشارب من خلال
حوار الفرق والمثُل والنحل المختلفة ولكن ذلك شريطة أن نعرف
كيف نختلف وكيف تقبل الرأي الآخر وكيف تتجادل كما أمرنا
اسلامنا الحنيف بالتقوى أحسن ، الا أن ذلك لم يتواجد على
ساحة هذا العصر ، فقد نشر النزاع والتخاصم العلني بين الفرق
المختلفة ووصل الى حجة خطيرة لا تحتمل سبب الكثير من
الأخطار على أمن البلاد ، حتى أن الحروب كانت تعلن في
الشوارع والمدن ، كذلك الثورات بين أهل الفرق المختلفة ،
بسبب الخلاف الذي قد يقع بينهم في الآراء ، وقد قامت الحروب
الطاحنة بين أهل السنة والرافضة مرات عديدة .

وكان أقوى المذاهب انتشارا هو مذهب الأشاعرة الذي
سار في العراق وما جاورها على يد الغزالي ، ولعل (صلاح
الدين الأيوبي) كان من أول المسانددين للمذهب الأشعري ،
حيث جعله المذهب الرسمي لمصر والشام ، كذلك ناصرت الأسرة

الأيوبيّة هذا المذهب وقوته ، كما انتشرت في المغرب العربي على يد (محمد بن تومرت) مؤسس دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ، فاليه يعود نشر المذهب الأشعري وفكر الغزالي وكانا موسومين بالزندقة ويقال ان (ابن تومرت) ذهب الى العراق وأخذ عن (الغزالي) مذهب الأشاعرة ، فلما عاد الى بلاده ، نشر هذا المذهب فيها ، وأخذ من أتى بعده يعمل على مناصرة المذهب ويؤيده ، حتى أن دولة الموحدين ، كانت تستبجح دم من يخالف عقيدة مؤسسها (ابن تومرت) اذ هو عندهم الامام المعصوم المهدي ، المعلوم . فكان هذا في نظر المقرئ هو السبب لانتشار المذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الاسلام ، بحيث نسي غيره من المذاهب ، حتى لم يبق مذهب يخالفه ، الا مذهب الحنابلة أتباع (الامام أحمد بن حنبل) رضي الله عنه ، فانهم كانوا على فكر أهل السلف فلا يرون تأويل ما ورد من الصفات ، حتى جاء ابن تيمية فتصدى للانتصار لمذهب السلف وبالنسبة الى الرد على مذهب الأشاعرة كما يرى المقرئ (ج ٤ من الخطط) .

ولعل انتشار مذهب الأشاعرة في تلك الفترة وتمسكه في نفوس العلماء والعامة معا ، واعتقاد الناس أنه هو مذهب أهل السنة والجماعة ، هو الذي حمل (ابن القيم) وأستاذه (ابن تيمية) من قبله على الاشراف على نقد الاتجاه الأشعري ،

وشدة التحامل عليه ، كى يزيل من الأذهان تماما ذلك السلطان الذى كان يتمتع به ذلك المذهب السائد فى معظم البلاد الإسلامية .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك مذاهب أو اتجاهات فكرية أخرى غيره . بل زالت واندثرت ، كلا ، فقد كان هناك بالبلاد الإسلامية بجوار المذهب الأشعرى مذاهب أخرى : كلامية ، وفلسفية متعددة ، فقد كان هناك شيعة رافضة بخراسان وأرض العراق ، وكان هناك كرامية بخراسان أيضا ، وكان هناك زيدية باليمن ، ومتصوفة تقول بالانحادية أوحدة الوجود أمثال (محيى الدين بن عربى) والشاعر (عمر بن الفارض) . وأتباعهم . كما كان يوجد فلاسفة يعتقدون أفكار (الفلوانى) و (ابن سينا) و (المرشدية) . . . الخ ، كل ذلك عدل أصحاب الديانات الأخرى من اليهود والنصارى وغيرهم .

وهكذا كان عالمنا المسلم يتنوع بمختلف الآراء والنظريات ويحفل بما لا يحصى من الفرق والمقالات ، والذي قد انتهت اليه جميع الثقافات كلها من دينية وفلسفية .

الحالة العلمية

قلنا ان الحالة السياسية كانت ضعيفة الى درجة يرثى لها ، وان الحالة الاجتماعية كانت سيئة الى أقصى حد ، فقد كثير

الصوص واستفحل أمرهم ، وكثر قطاع الطرق ، فزاد السلب والنهب في البلاد ، بل ان الأمراء استعملوهم ليتوصلوا بهم الى مآربهم ، وعمد الناس الى الغش في البيع والشراء ، وأصبح التنظيف في الكيل والميزان سمة العصر ، وشاع احتكار الأقوات ، وغير ذلك من العلل الاجتماعية ، مما حدا ببعض العلماء أن يطالبوا ويأمروا بفرض التسعيرة الجبرية ، ويؤلفوا الكتب والرسائل في هذا المجال كتباً ورسائل ، ومن هؤلاء العلماء : (ابن تيمية) الذي ألف رسالة بين فيها حرمة احتكار أقوات المسلمين •

وقد ذكرنا أمثلة غير قليلة ، تدلنا على الفساد والاضطراب في الناحية السياسية ، وأمثلة أخرى تدلنا على مدى التفكك والضياع في الناحية الاجتماعية • وعلى عكس ذلك جاءت الناحية العلمية فقد كانت معبرة عن التقدم والازدهار والنهضة وجاء عصر الموسوعات أو عصر المجاميع كما يسميه شيخنا إبراهيم الاياري •

وقد يعترض معترض قائلًا : « أبعد ذلك الضعف والانحطاط تقول : ان هناك حركة علمية ، أو نهضة علمية ، أو ازدهارا وتقدما في الحياة العلمية ؟ » لقد قررت من قبل أن هذا العصر عصر فاسد ، مضطرب فكيف يكون هناك نتاج علمي وقد

استعجبت فيه الأسن والعادات ، والأفئس والعقول ، وكثرت
الثورات والحروب السياسية ضد المسلمين وجاءتهم المصائب
من كل ناحية ، فلم يكن لديهم من الاستقرار والرفاهية ما يمكنهم
من الاشتغال بالبحث والتفكير . لقد قل الانتاج العلمى ، وركدت
الأذهان ، وأخذ الناس يقلدون من سبقهم فى الأصول والفروع
ولم يمكنهم الاجتهاد فى أى فرع من فروع المعرفة من تحقيق أى
انجاز له قيمته العلمية ، اعتنق الناس مذهب الأشعرى وحرم
الأخذ فى الأصول بغير المذاهب الأربعة ، وألغى العقل تماما ،
وعمد العلماء فى ذلك العصر الى الجمع من كتب السابقين ،
والسير على نظامهم فى التأليف ولكن لم يكن هناك أى أثر
للتجديد والابتكار فى تاجهم » .

أنا معك - أيها الصديق - فى ذلك ، ولكن لا تنكر أنهم
ساروا على نظام السابقين فى التأليف سيرا حسنا ، وسلكوا
مسلكا جيدا فيه ، فجمعوا المباحث المتعلقة بكل فن فى مسلك
واحد وكتبوا فى ذلك المؤلفات الضخمة ، أحيانا والمختصرة
أحياء أخرى ، ألا يكفئك أيها الصديق أن يكون هذا العصر
رغم كل عيوبه عصر السبوطى ، وابن خلكان ، والكتبى ،
والصفدى ، والأدقوى ، عصر ابن القيم وابن تيمية أستاذة ،
وابن أبى أصيبعة والذهبى ، والعسقلانى ، والمقرزى ، وابن
إياس ، وأبو المحاسن ، وابن منظور ، وابن فضل الله العمرى ،

والنويرى وابن خلدون والطقطقى والماورذى .. الخ ..
الخ من أعيان عصر الموسوعات وأعلامه .

أن دور هؤلاء العلماء أعظم ما يمجّد أو يثنى عليه ، ففى الوقت الذى جرد الجنود المشتتة من أسلحتهم ، والجمت السنة وعقول رجال السياسة ، فقد كانوا أعجز من أن ينهضوا بالدور ، ومن ثم كانت الظروف التاريخية تصنع المسئولية ، وتهيب لدور العلماء الذين أسرع أيديهم فى شوق أصيل ، وعشق جارف ، ولهفة تحدوها رغبة مخلصّة فى انقاذ تراث الأجداد العظام ، أسرع الأيدى الطاهرة تليم ما بعثره المغول فى الشرق أو الأسباب فى الغرب من رصيدنا الفكرى والثقافى ، وتضم بعضه الى بعض ، لتصنع البديل أو العوض العلمى عن المجد السياسى الذى ضاع ، والتمزق الاجتماعى الذى شاع ، والانهيار الاقتصادى الذى عم وانتشر ، لتصنع منه قبل هذا سياجا روحيا نقيا ، سياجا فكريا يحمى وجدان الأمة ويصون نفسيّتها من الانحلال والتفتت .

فى هذا العصر عصر ما بين الفريتين ترددت فى قلب العالم العربى عشرات الاسماء من الاعلام الكبار الذين فجرت المحنة فى وجدانهم الوعى بحركة التاريخ ، فشرعوا يجمعون ويوثقون كل ما بعثرته الأحداث الجسام من أمجاد أمتنا

الاسلامية ، ومن تاريخ فكرها ، وسير رجالها ، ثم ارتقى
احساسها بالتاريخ فبحثوا فى فلسفته ، وفى أسرار حركته •

ان من يقرأ مؤلفات هذا العصر الموسوعية يرى أن الجهد
لم يقتصر على الجمع وثم الثبات فقط بل يرى جهد التصويب
والبحث والاستنتاج وعلى القارئ أن يقرأ قراءة واعية ،
ليخرج بها بمذهبه الذى يراه ، يختار منها ما يتفق مع عقله
وتفكيره وهى نفس الطريقة التى أخرجت لنا علماء أجلاء كانوا
بدوراً أضاءت وجنات هذا العصر المدلهم •

ليس معنى الضعف العلمى أو الجمود الفكرى انعدام
الرجاء فى النهوض والرقى ، ولا يعنى عدم ثوب بعض العلماء
الناهين الذين يوجدون دائماً فى كل عصر ، كلا ، فقد وجد
فى هذا العصر علماء أجلاء غير الذين سبق وذكرنا بعضهم
مثل : البيضاوى ، والصفى الهندى ، وتقى الدين السبكي ،
والشيرازى ، وابن دقيق العيد ، والسبكي وغيرهم •

ولنحدد أكثر ما نقول : ما الأسباب التى أدت الى تقدم
وازدهار ونهضة هذا العصر الموسوعات والمجاميع من
الناحية العلمية رغم سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية ؟ !

١ - هجرة العلماء من الشرق حيث بطش المغول ،

والغرب حيث بطش الأسبان الى مصر والشام وجنوب المغرب
حيث لا مغول ولا أسبان •

٢ - كثرة دور العلوم الممثلة في المدارس - والتوسيع
أنشئت قبل عصر المماليك - والمساجد والمكتبات وذيوع
أمرها في عصر المماليك •

فنحن نعرف مدرسة برقوق في بين القصرين ، والمدرسة
الجمالية التي بناها الأمير جمال الدين الاستادار في عهد
السلطان فرج ، ومدارس الأشرف برسباي الثلاث في سرياقوس
والقاهرة ، والصحراء •

كما عرف هذا العصر المساجد ، والجوامع التي قامت
بدور وافر في هذا المجال - مجال التعليم والثقافة - مثل
الجامع الأزهر الشريف والذي اتخذ منه صلاح الدين الأيوبي
مركزاً لنشر المذهب السني ، ومثل الجامع العتيق (جامع
عمرو بن العاص) بفسطاط مصر ، وجامع الحاكم بياي
الفتوح • وغيرها من المساجد التي كانت تجتمع فيها حلقات
الدرس في مختلف العلوم الدينية والعربية والتاريخ •

٣ - كثرة الأوقاف الخيرية الموقفة على المعلمين
والمتعلمين - فقد تضاعف أهل هذا العصر من سلاطين وأمراء

وأهل بيوت وأثرياء وعلماء وتجار وحرفيين الى انشاء دور العلم والوقوف عليها تقربا الى الله تعالى كما بذهب المقرئى (خطط المقرئى ٣ / ٣٤١) .

٤ - لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعى ليعوضوا به ما أتلفته يد المغول التترى ، ويد الغرب الصليبي . فقد ثبت أن أحد الكرادلة فى أسبانيا فى أواخر القرن التاسع أتى على مكتبة غرناطة والتي كان بها من المجلدات ما يربو على الثمانين ألف مجلد احرقا (تراث الانسانية ٢ / ٦٣٠) هذا بالاضافة الى ما فعله المغول فى تراث المسلمين بعد ما سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

حقا « لقد كانت البلاد الاسلامية ممزقة بين التتار والمغول فى الشرق ، والمماليك فى مصر والشام ، والبربر فيما وراء مصر الى المحيط الأطلسى ، فكانت البلاد فى حالة يرثى لها ، يتولاها فى غالب الأمر ما لا يمت اليها بصلة أو نسب ، ولا يجمعه بها لغة ، فاستعجت الألسن ، وضعفت اللغة العربية ، والسيادة الاسلامية ، ولولا أن الاسلام هو دين القوم ، والقرآن قانونهم ومرجع أحكامهم ، والقوم مضطرون فى سبيل قيادة هذه الشعوب الى أن يجعلوا للقرآن وعلمونه المكان الأول ، لولا ذلك لزالَت العربية ، ومحيَت آثارها ، حتى أن لغة

التخاطب ولسان الحكومة الرسمى فى بعض الممالك الاسلاميه
كانت الفارسيه او التركيه ، ولكن العربيه ظلت لغة التأليف «
(الادب العربى وتاريخه ، ج ٢ - لمحمد مصطفى ص ١٨٢) •

ولكننا مع ذلك نجد نشاطا فى التأليف ، واظهارا لكتب
جامعة فى كل علم ، وموسوعات ضخمة تشمل الكثير من العلوم
والمعارف ، وذلك بسبب نكبة البلاد بالمغول ، وحرقتهم للمؤلفات
العلمية ، ورميهم اياها فى البحر ، فحفزهم ذلك الى جمع المتفرق،
واحياء المدارس ، لتعويض ما فات •

لقد ذكرنا الكثير من هؤلاء العلماء من رواد الموسوعات
وقد آن الأوان كى نعرف ببعضهم ، ونرى الى أى حد قد
طرقوا جميع ألوان الفكر والمعرفة ، وكتبوا فيها المؤلفات الكبيرة
سواء كان ذلك فى التاريخ الاسلامى ، أم فى فروع اللغة
العربية وعلومها ، أو علم الكلام ، أو التفسير والحديث •

وسوف نركز على بعض من علماء التاريخ الاسلامى •

الكافيحي

مؤرخ امله التاريخ

مع أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) عندما زادت المادة التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية، خاصة دواوين الانشاء والجنـد والخـراج والبريد ، أمكن للمشتغلين بعلم التاريخ الاتفـاع بما فى هذه الدواوين من معلومات قيمة ، لذلك يلاحظ القارىء الدارس أن كتابات تواريخ القرن الثالث احتوت على عهود رسمية ومراسلات سياسية واحصاءات للمواليد والوفيات ومعلومات وافية عن كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات ، يضاف الى ذلك ما شاهده ذلك العصر من نشاط حركة الترجمة عن الفارسية ، والسريانية ، واليونانية ، واللاتينية وغيرها من اللغات . كما أن سهولة الانتقال فى انحاء الدولة الاسلامية دفعت الكثير من طلاب العلم والمؤرخين الى الرحلة فى طلب الرواية ورؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ، لهذا كانت مصادر التاريخ عند العرب فى القرن الثالث الهجرى أربعة هى :

(أ) كتب السيرة والأخبار •

(ب) السجلات الرسمية •

(ج) المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية •

(د) المشاهدة والمشافهة (١) •

وعندما كثرت المادة التاريخية اتجه الكثير من العلماء ،
وثقات الفقهاء لدراسة التاريخ والتأليف فيه ومن ثم أخذوا
التاريخ مظهره الرائع على أنه من أجل علوم المسلمين وأعظمها
شأنا • وارتفع شأن المؤرخين بين علماء الدول الإسلامية (٢) •

ومنذ القرن الثالث الهجري عندما أصبح علم التاريخ علما
مستقلا نجد اتجاهات معينة لكتب التاريخ • وبدأنا نطالع
مؤلفات لأعلام تعد من مصادر وأمهات كتب التاريخ :

— فتوح مصر والمغرب لعبد الرحمن بن الحكم المتوفى
(٢٥٧ هـ) •

— كتاب القضاة للكندي المتوفى (٣٥٠ هـ) •

(١) دراسات في علم التاريخ ومنابعه للأستاذين الدكتورين : سيد
الناصر ، وحسين زبيح • من ص ١٢٥ الى ١٢٤ (كلية الآداب - القاهرة -
سنة ١٩٧٧) •

(٢) تاريخ التاريخ للأستاذ المرحوم/ علي أدهم - سلسلة (كتابك) دار
المعارف القاهرة (بتصرف) •

— تاريخ بغداد واعلامها للخطيب البغدادي المتوفى
• (٤٦٣ هـ)

— تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى (٥٧١ هـ) •

— البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (القرن
السابع) •

— تجارب الأمم لابن مسكويه •

— الكامل في التاريخ لابن الأثير •

— المختصر في أخبار البشر (٤ أجزاء) لأبى الفداء •

— روج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي المتوفى
• (٣٤٦ هـ)

— جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمداني
المتوفى (٧١٨ هـ) •

— مقدمة ابن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ) •

— المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي
المتوفى (٨٤٥ هـ) •

— عقد جواهر الاسفاط من أخبار مدينة انفسطاط
للمقريزي •

— اتماظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء
للمقریزی •

— السلوك لمعرفة دولة الملوك للمقریزی •

— أبناء العمر في أبناء العمر للعسقلاني المتوفى سنة
(٨٥٢ هـ) •

— عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لأحمد العيني
المتوفى (٨٥٥ هـ) •

— النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن
ابن تغرى بردى المتوفى (٨٧٤ هـ) •

— حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور لأبى المحاسن
ابن تغرى بردى •

— نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان لأبن
الصيرفي المتوفى (٩٠٠ هـ) •

— التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوى المتوفى
(٩٠١ هـ) •

— الاعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ للسخاوى •

— مناقب الزهور في وقائع الدهور لأحمد بن إياس
المتوفى (٩٣٠ هـ) ... الخ ... الخ •

هذه القائمة من الأعمال والأعلام والتي تصل بنا الى
القرن الخامس عشر الهجرى تخلو من مؤرخ أهمله التاريخ انه
الكافيجى !! *

ولا نكون على درجة من المبالغة اذا زعمنا ان الكافيجى
لم يأخذ حظه من الدرس والتحليل لدى من يتصدى للتأريخ
لمن كتبوا التاريخ ، فللرجل دور كبير وبارز رغم ما نلمحه
من سلب أو ايجاب فى منهج التأريخ الخاص به فانه يستحق
البحث والتمحيص *

الكافيجى : يعال الزركلى سبب تسمية الرجل بالكافيجى
لكثرة اشتغاله بالكافية فى النحو *

اسمه بالكامل : محبى الدين محمد بن سليمان الكافيجى،
أصله من منطقة تسمى (كوك جاكى) فى الأناضول التركية
المسلمه ، ولد الرجل على حد روايته فى سنة (٧٨٨ هـ) وتوفى
(٨٧٩ هـ) أى أنه توفى وعمره يناهز ال ٩١ عاما وقد يكون
فى روايته عن تاريخ مولده بعض المبالغة *

ويرجع الزركلى مولده الى سنة (٧٨٨ هـ) ووفاته الى
(٨٧٩ هـ) وهو يردد نفس قول الكافيجى ، بينما يقول السيوطى
فى (حسن المحاضرة) انه ولد قبل سنة (٨٠٠ هـ) وتوفى

(٨٧٩ هـ) ، ويقول صاحب الفوائد البهية ان وفاة الكافيجي كانت سنة (٨٧٣ هـ) .

السخاوى يردد اسم الكافيجي في ضوئه اللامع ومن طريقة حديث السخاوى يهياً لنا أن الرجل كان « معلماً شعبياً » (٣) على حد تعبير (فرائز روز نسال) وهذا ما يؤكد لنا كل من ذكر الكافيجي ضمن تراجم رجال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) .

للكافيجي عدة مؤلفات يتواجد جلها كمخطوطات بدار الكتب المصرية ، غير أن معظمها قصير ولم ينشر منها حتى الآن شيء يذكر الا أن أشهرها على الاطلاق « المختصر في علم التاريخ » ولا ننسى هنا الجهد المشكور الذي قام به (فرائز روز نسال) في كتابه المهم والمعنون بـ (علم التاريخ عند المسلمين) (٤) والذي ترجم فيه كتاب الكافيجي للغة الانجليزية رغم أن (فرائز) ألماني الجنسية وقد ترجم كتاب (فرائز) الى العربية الدكتور/ صالح أحمد العلي (عراقي) وراجع الأستاذ/ محمد توفيق حسين (عراقي) .

(٣) راجع قصيدة الشهاب المنصوري في رثاء الكافيجي والمرووفة باسم (الجيمية) ليتأكد دور الرجل كمعلم شعبي في نفس الدراسة .
(٤) هذا الكتاب الفقه (فرائز روز نسال) وقام بترجمته د. صالح العلي بنصريح خاص من مؤسسة فرتكلين للطباعة والنشر (أغسطس ١٩٦٣ م) .

كتاب « المختصر » كتب حوالى (٨٦٧ هـ) وبالرغم من حداثة تاريخه نسبيا ، فإنه يعد من أقدم الرسائل الإسلامية المعروفة لدى الباحثين عن التاريخ كعلم وكنظرية في تاريخنا الإسلامى ، وإذا وجدنا عن هذا الموضوع رسائل أو كتب أقدم تاريخا من مختصر الكافيجى فهى - وللأسف - لم تخرج للنور وإن كنا نشك أساسا فى وجود رسائل أو مؤلفات تعالج التأريخ كعلم أو كنظرية .

وقد يعترض معترض علينا ويسألنا فى دهشة استنكارية : وأين ابن خلدون وجهده الجاد ؟ والحقيقة أن ابن خلدون فى مقدمته اعتبر فى عرف العلماء كاتباً لكتاب مستقل ، بمعنى أن المقدمة تعد كتاباً مستقلاً فى حياة ابن خلدون والذى أطلق على موضوع الكتاب الأول منها علماً مستقلاً . ومع هذا فقد أريد « بالمقدمة » أن تكون مقدمة لتأريخ عظيم ، وكانت تبحث فى التاريخ كتاريخ وكفلسة ، ولا تبحث فى كتابة التأريخ إلا بصورة غير مباشرة .

لقد حاول الكافيجى فى عصر الموسوعات أن يكتب « مختصره » كى يظهر فى المقام الأول اهتمامه بمعالجة نظرية للتأريخ دون غيرها من الأمور . ويمكن القول ولأول وهله بأن رجلنا لم يحالفه التوفيق الى حد كبير ، فالنصف الثانى من

الصفحات العشرين من المخطوطة والموجودة بدار الكتب المصرية ملئ بالقصص ، التي تحتاج الى تمحيص ، وهذه القصص يهدف منها المؤرخ أن يوضح لنا أموراً نظرية بحتة ، وهو في هذا مثله مثل معظم مؤرخي هذه الحقبة ، وفي الواقع ان معظم هذه الروايات القصصية مجرد أمور خيالية عادية ، مجرد حكايات بعضها متداول لدينا وبعضها مبالغ فيه مثل حديثه عن الأنبياء والملائكة والرسول ، ونحن نقول : مبالغ فيه لأنه لا يتفق مع ما عرفناه وتعلمناه من القرآن الكريم والسنة المطهرة عن الأنبياء البررة والملائكة •

حكايات الكافيحي تنتهي الى آخر كتابه حيث يعطينا بعض المعلومات التاريخية • وإذا كان النصف الثاني من المختصر مليئاً بمادة لا قيمة لها من وجهة نظر التمحيص العلمي ، فان القسم الأول من الكتاب يعوض لنا تماماً نقائص القسم الثاني •

كتاب « المختصر في علم التاريخ » أو « مختصر علم التاريخ » هو أشهر كتبه الجديرة بالاعتبار الأصالة طريقتيه ، وجودة كتابته ، وهو يتبع النظام المؤلف في التعريف العلمي يرجع به الى الفلسفة الأرسطوطاليسية ، ولعله يذكرنا على الفور بخطط المقرئ الذي يبدأ صفحاتها هو الآخر بثمان مسائل « أرسطوطاليسية » • ولعلنا نكون على صواب اذا قلنا ان

مصدر الالهام المباشر في هذا المضمار هو طريقة البحث الفقهي
في الدراسات الاسلامية .

لقد أجاب الكافيحي في مختصره عن بعض المسائل المتعلقة
بخصائص علم التأريخ وغرضه ، وهدفه ، وفوائده . غير أنه
كرس مجالا أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة
« تأريخ » العربية ، وعن مركز علم التأريخ في العلوم والدراسات
العربية والاسلامية .

لم يكن الكافيحي مؤرخا محترفا بمعنى الكلمة ،
ولا يبدو أنه كان مهتما بموضوع الاحتراف هذا ، وهو لا ينشد
اهتماما بحثا بهذا العلم ، ولكن ذلك لا يقلل من محاولته
التنظيرية في هذا الميدان .

وللكافيحي كتاب آخر ذكره بعض رجال الاستشراق ،
وهذا الكتاب يبدو أنه قد اهتم فيه بالمشاكل التاريخية البحتة
وأقصد كتاب « النصر القاهر ، والفتح الظاهر » ولم أتمكن
بعد بحث مرهق من العثور على مخطوطته في خزائن دار الكتب
المصرية ، أو مكتبة جامعة الأزهر الشريف أو معهد المخطوطات
العربية بالقاهرة .

لقد كان صاحبنا يعتبر في زمانه ربحانة معرفة ، ثقة في
العلوم العقلية (غير الدينية) وان كان ذلك لا ينفي عمقا معرفيا

في فكره بعلوم القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية المطهرة ،
والفقه وغيره ، ولعل معارفه العقلية كانت شغله الشاغل الذي
حرص على اظهاره والاعتراف به .

ولابد من الاعتراف العلمى الصريح فى هذا المجال بأن
أفكار الكافيي عن علم التاريخ كما نستشفها من مختصره ،
كان لها الأثر الأكبر على السخاوى مؤرخنا « المشاكس »
لمعاصريه ، فلولا كتاب « المختصر فى علم التاريخ » لما كان
بالإمكان ظهور كتاب « الاعلان بالتويخ » للسخاوى . فان
المسائل التاريخية ، وطريقة عرضها فى كلا الكتاين متفقه
تماما . ولا يوجد مبرر لأى محاولة افتراضية تدعى وجود
مصدر مشترك لهما . غير أنه قد يكون من الخطأ ذم
السخاوى لعدم تقديره المناسب لكتاب الكافيي وجهوده
العلمية ، فالسخاوى « حزب معارضة دائم » لسابقه ومعاصريه .
كان السخاوى يحاول أن يملك نفسه ويحاول أن يعطى حلولاً
جديدة للمسائل التى أثارها غيره ، سواء أكان الكافيي أم
سواه .

كان السخاوى واضحاً فى مسأله كلها بينما كان عرض
الكافيي شديد الإيجاز . ونظرة عابرة على عناوين مؤلفات
الزجلين تؤكد لنا هذا . ولا ننكر أن السخاوى - رغم ثروته

الكثيرة - قد ملاء فراغا كبيرا لنواحي علم التاريخ في العلوم
الاسلامية .

ويبدو أن صاحبنا - الكافيحي - كان سيء الحظ
فابداعه لم توازه موهبة أدبية مواتية في فن التعبير الأدبي ،
فكل ما يقوله من ملاحظات تبدو وكأنها رؤوس أقلام - على
حد تعبير الاخوة في العراق - محاضرات أقيمت على مجموعة
طلاب للفقهاء . مع ملاحظة الاصطلاحات الفنية التي كانت شائعة
في عصر الكافيحي الموسوعي وهي اصطلاحات فقهية بحتة .

واذا حاولنا استشفاف المعنى المضبوط لنص « المختصر »
يبقى في بعض الأحيان غامضا بالنسبة لنا ، وهذا يرجع - في
اعتقادنا - الى أن الرجل عالم ، ولا ضرر ولا ضرار أن تخون
العالم قدرات التعبير الواضح عن نفسه . غير أن أفكاره تبدو
هي الأخرى غامضة !! ولعل علة ذلك أن هذه الأفكار لم
تأخذ حظها من النضج والاستواء في ذهن موسوعي مثل
الكافيحي .

أعود الى مخطوطة « المختصر في علم التاريخ » وهي
مرجعى في الحديث عن علم التاريخ في فكر الكافيحي ، أجدها
قد كتبت بعد أيام ثمانية (فقط) من تاريخ انتهاء مؤلفها من
كتابتها في سنة (٨٦٧ هـ) . ويبدو أن أجدادنا كانوا لا يعانون
من أزمة نشر وخامات طباعة (نسخ) كما في أيامنا الصعبة هذه .

نقلب فى مخطوطة الكافيجى لنعثر على اسم ناسخ المختصر
 انه تلميذ بار من طلاب على الكافيجى اسمه : على بن داوود
 الجوهري المؤرخ الذى ولد سنة (٨١٩ هـ) وتوفى سنة
 (٩٠٠ هـ) ، وحدثنا عنه ابن اياس فى بدائع الزهور (الجزء
 الثانى) ، كما حدثنا عنه بروكلمان فى تاريخه الا أنه - وكالمعتاد -
 نجد السخاوى يجعل من هذا الرجل شخصية رديئة جدا دون
 أدنى مناسبة . II

وفى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة أجد صورة
 فوتوغرافية وهى طبق الأصل لصورتين متواجدين فى مكتبة
 « أياصوفيا » التركية هذه المخطوطة نسخت فى يوم الخميس
 الموافق ٢٣ من شهر شعبان سنة ١٠٠٠ هـ لم أتمكن من قراءة
 السنة أو بقية الكتابة ، ولعلها تكون نفس السنة التى ألف فيها
 المختصر ، غير أن يوم الثالث والعشرين من شعبان سنة
 (٨٦٧ هـ) يوافق ١٣ من مايو سنة ١٤٦٣ م يصادف يوم
 جمعة II هـ .

ونلاحظ أن النسخة المخطوطة التى كتبها الجوهري كتبها
 لاستعماله الخاص كما يتجلى ذلك من خطها الرديء جدا .

أما النسختان المتواجدتان فى تركيا فكاتبهما تلميذ آخر
 للكافيجى يدعى يحيى بن محمد الدميسى ، والذى ولد

سنة ٨٢٣ هـ ، وكان هو الآخر مثل علي بن داوود الجوهري مؤرخا وتلميذا ودودا للكافيجي والشيء المثير للدهشة أن الدميسبي ظل على علاقة وطيدة وقوية بالسخاوي ، بعكس الجوهري . وعندما كتب السخاوي ضوءه اللامع كان الدميسبي حيا يرزق ، فحظي بقسط وافر من مديح السخاوي على غير العادة السخاوية (الضوء اللامع ج ١) .

ويتضح من نسخة الدميسبي أنها نسخت للنشر (للبيع) ، ولذلك كتبت بخط واضح ، جيد ومقروء ، والكتابة الرديئة في نسخة الجوهري لا تعنى جودة النص ، فالنص مفكك مكتظ بالأخطاء الاملائية واللغوية والأسلوبية ، عكس نسخة الدميسبي .

حديثنا عن الكافيجي هذا لا يغنى عن دراسة عميقة نحن في أمس الحاجة لها كي نظهر دور هذا الرجل الموسوعي .

يقول السيوطي عنه (محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي ، محيي الدين ، أبو عبد الله الكافيجي) ، ويمتدحه السيوطي (٥) مؤكدا أنه تلقى العلم في حلقاته ، ويصفه

(٥) يقول السيوطي في حسن المحاضرة: أن وفاة الكافيجي كانت ٨٧٩ هـ ، ويجدر بالذكر أن السيوطي لازم الكافيجي ١٤ سنة ، واشاد السيوطي كثيرا باستاذيته .

بالمحقق ، علامة الدنيا ، أو علامة الوقت وأستاذ الدنيا في
المعقولات .

تلقى الكافيحي علومه على يد البرهان حيدرة ، والشمس
ابن العتري وغيرهما من جهابذة العلم في تلك الفترة التي
عاشها . وتقدم في فنون المعقول حتى صار امام الدنيا ، صاحب
التصانيف العديدة .

وجميع أعمال الكافيحي ما زالت مخطوطة لم تر النور
حتى الآن وها نحن أولاء نقدمها للمحققين لعلها تجد من يتصدى
لها ويعرف بها الأجيال المتعطشة لمعرفة المزيد من تراث
الأجداد :

- ١ - مختصر في علم التأريخ .
- ٢ - أنوار السعادة في شرح كلمتي الشهادة .
- ٣ - منازل الأرواح .
- ٤ - معراج الطبقات .
- ٥ - قرار الوجد في شرح الحمد .
- ٦ - نزهة المقرب في النحو .
- ٧ - التيسير في قواعد التفسير .
- ٨ - حل الأشكال (في الهندسة) .

٩ - الأحكام فى معرفة الايمان والأحكام .

١٠ - الامناع بافاده (لو) الامتناع .

١١ - جواب فى تفسير : « والنجم اذا هوى » .

١٢ - مختصر فى علم الارشاد .

١٣ - شرح كتاب ابن هشام فى النحو .

وكانت وفاة الرجل ليلة الجمعة رابع جمادى الأولى سنة
تسع وسبعين وثمانمائة أى بعد عامين فقط من سقوط الأندلس
المسلمة (٣١) . وقد رثاه الشاعر المشهور على عصره الشهاب
المنصور بأبيات (جيمية) منها :

بكت على الشيخ محيى الدين كافيجى

عيوننا بدموع من دم المهج

كان أسارى هذا الدهر من دور

تزهى فبدل ذاك الدر بالسح

(٣١) تولى الكافيجى فى حياته عدة وظائف حكومية ابتعدت بمشيخة
الشيخونية وانتهت برؤاسته للمذهب الحنفى بالقاهرة الملوكية .

فكم نعى بسماح من مكارمه
فقرأ وقوم بالاعطاء من عوج

يا نوع علم لراه اليوم منطقتنا
وكانت الناس تمشى منه في كرج

فلو رأيت الفتاوى وهى بأكيه
رأيتها من نجيع الدمع في لجج

ولو سرت ببناء عنه ريح صبا
لاستشيقوا من شذاها أطيب الأرج

يا وحشة العلم من فيه اذا اعتركت
ابطاله فتواتر فى دجى الوهج

لم يلحقوا شأو علم من خصائصه
أنى ورتبته فى أرفع الدرج

قد طال ما كان يقربنا ويقرئنا
فى حالته بوجه منه مبتهج

سقياله وكساه سنا
من سندس بيد الغفران مشح

وختاما كان معى فى حديثنا عن الكافي جى الضوء اللامع
 للسخاوى (٢٥٩/٧) ، مفتاح السعادة (٤٥٤/١) ، الشقائق
 النعمانية بهامش ابن خلكان (٦٨) ، بغية الوعاة للسيوطى
 (٤٨) ، بدائع الزهور لابن اياس (١٥٢/٢) ، حسن المحاضرة
 للسيوطى (٣١٧/١) ، شذرات الذهب (٣٣٦/٧) ، الفوائد
 البهية (١٦٩) (٧) .

رحم الله الكافي جى وجزاه خيرا عما قدم للعلم وللإسلام .

(٧) سبق لكاتب هذه السطور كتابة دراسة من الكافي جى بعنوان :
 (الكافي جى : مؤرخ أهله التاريخ) ونشرت بمجلة (منبر الإسلام) الصادرة
 عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (مصر) - عدد رجب ١٤٠٥ هـ -
 الصفحات من ٦١ - ٦٥ .

مؤرخ بين الخطط واللوك :

أحمد بن على المقرئى

المقرئى تلميذ مخلص لفكر ابن خلدون ، واسمه أحمد بن على المقرئى كان مولده بالقاهرة عام ١٣٦٤ م ، بحارة برجوان والتي ما زالت كائنة بقسم الجمالية فى القاهرة القديمة ، والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على حد التعبير المصرى فى هذا العصر ، أو العمارة الكبيرة فى عصرنا ، ولا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم موجودا فى الشام •

نجاى أسرة المقرئى الى القاهرة من يعلبك اللبناية فى حياة أبيه على ، وأصل هذه الأسرة يرجع الى حارة المقارزة فى لبنان •

ويرى استاذنا د. مصطفى زيادة رحمه الله أن هناك شبا ملحوظا بين هذه التسمية ولفظ مقرئى وهى جهة فى ايطاليا

قرب روما ، ويرجح أن تلك الحارة البعلبكية كانت سكنا
لجالية من الجاليات الايطالية التى وفدت للتجارة ببلاد المشرق
زمن الحرب الصليبية ، وأن أسرة المقرئى اكتسبت هذه
التسمية لحلولها بتلك الحارة بعد خلوها من سكانها
الأصلين .

ومهما يكن فالمعروف المؤكد أن أحمد بن على المقرئى
نشأ نشأة قاهرية ، بناحية من أعظم نواحي قاهرنا امتلاء بال عمران
والصخب وضوضاء الحياة ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ
الحنفى تولى تعليمه ، لضيق حال والده على فيما يبدو قبل أن
يصبح من أصحاب العقار والأملأ .

وأخذ الجد ينشئ الحفيد على أصول الحنفية ، وائكب هو
على الدرس والتحصيل تحت ارشاد أساتذة عصره ، وأظهر
نباجة ومقدرة .

ثم مات الجد سنة ١٣٨٤ م ، فترك المقرئى مذهب
الأحناف ، وانتقل على وجه السرعة لدراسة مذهب الشافعية ،
دراسا الفقة دراسة واسعة عميقة ، وأخذ يهاجم الأحناف
عنف مستغرب استوجب لوم معاصريه له .

والتحق المقرئى بالخدمة الحكومية ، فكان يؤول عهده بها
موظفا فى ديوان الانشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل كاتباً (موقعا)

حتى سنة ١٣٦٨ م ، ثم غدا بعد ذلك نائبا من نواب الحكم أى قاضيا عند قاضى القضاة الشافعية ، فاماما لجامع الحاكم بأمر الله ، ومدرسا لعلم الحديث بالمدرسة المؤيدية .

فى سنة ١٣٩٨ م اختاره السلطان برقوق المملوكى وكان حفيا به مشجعا اياه ، اختاره لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين .

فى أثناء ذلك تزوج المقرئى وأنجب ، والمعروف أن بنتا له ماتت بمرض الطاعون الذى اجتاح القاهرة المملوكية وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣ م . ويصدر القرار بنقل المقرئى الى دمشق السورية ، ليتولى النظر فى الأوقاف ، وليقوم بتدريس علم الحديث الشريف بالمدرستين : الأشرفية والاقبالية فى دمشق .

قرار آخر يصدره فرج بن برقوق بتولية المقرئى منصب النائب للحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف (الأوقاف القلانية والمارستان النورى) أن يكون الناظرون على أوقافها قضاة بها .

ورغم أن السلطان هو صاحب هذا القرار فان المقرئى رفض المنصب معتذرا . ويظهر أن مؤرخنا سنتم الوظائف الحكومية وهمومها ، بالاضافة الى أنه أصبح فى بحبوبة من المعيش تمكنه من اعتزال الوظائف ، ولا ننسى انه ملك من

الموارد ما أغناه عن اضاعة الوقت فى كسب العيش ، عن طريق
الحكومة والحكام .

ترك المقرئى دمشق وأعماله بعد اقامته فيها عشر سنوات،
وعاد للقاهرة خاليا من عمل أو وظيفة ، ليتفرغ للدرس والعلم ،
ولاسيما علمه المفضل التاريخ .

فى سنة ١٤٣٠ م يرحل المقرئى وأسرته الى مكة كى
يؤدى لريضة الحج ، ومكة ليست بغريبة عليه ، فقد جاور فيها
ابان طلبه العلم ، بيد أنه ظل مقيما بها تلك المرة الثانية حتى
سنة ١٤٣٥ م (٥ سنوات) واشتغل بمكة فى تلك الأثناء
بتدريس علم الحديث وبالتأليف فى علم التاريخ .

عاد المقرئى بعد ذلك الى القاهرة ، ليمضى بقية حياته
بجارية برنجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر
الحارات ، ويتضح لنا من كلام أبى المحاسن فى كتابه النجوم
الزاهرة (٢١٨/٨) أن المقرئى جعل من منزله مكانا لاستقبال
تلاميذه ، وصومعة يؤلف فيها الكثير فى مختلف علوم عصره .

بدأ النشاط العلمى للمقرئى بعمل ضخم الا وهو تاريخ
القاهرة الذى نعرفه بـ (المواظ والاعتبار بذكر الخطط
والآثار) ، وهو كتاب عنى فيه المقرئى بدراسة الخطط حتى

عرف بهذه التسمية حتى الآن ، وكان تأليفه اياه ما بين عامي
١٤١٧ م و ١٤٣٦ م (١٩ عاما) •

على أنه يظهر ان المقرئى اعتمد الى حد كبير فى تأليف
خططه الزاخرة - والذي يعد بشهادة جل المؤرخين والباحثين
فخر أعمال المقرئى - اعتمد على كتاب صنفه المؤرخ المسلم :
الأوحدى : فنقل منه دون أدنى اشارة أو اعتراف بأخذه منه ،
لذلك رماه السخاوى مؤرخنا المشاكس من أجل ذلك بقوله فى
(التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢٢) ان كتاب الخطط
للمقرئى مفيد لكون المقرئى ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها
وزودها زوائد غير طائفة •

ويذكر السخاوى فى كتابه الضوء اللامع (٣٥٨/١) ان
الأوحدى كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها ،
وأفاد وأجاد ، وبيض بعضها ، فبيضها تقى الدين المقرئى
ونسبها لنفسه مع زيادات • (الضوء اللامع ٣٥٩/١) •

ويقول السخاوى ان المقرئى اعترف باتفاعه بتلك
المسودات • ولم يستطع علماء التاريخ من أهل الاستشراق أن
يدفعوا هذه التهمة تماما عن المقرئى ، كما لم يستطع أحدهم
أن يدلى برأى حاسم فى ذلك •

وها هو ذا المستشرق كاترمير الفرنسى فى كتابه الموسوعى
(المماليك) يقول : انه من الفطنة والصواب أن نسكت عن
هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأى قاطع !!

والمقرزى نفسه لم يستطع أن يدلى فى سياق الرد على
هذه البتة من قوله : حسب العالم أن يعلم ما قيل ويقف
عليه !!

والقارىء لكتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط
والآثار) يمكن له العثور على شواهد فيه تؤدى بالقارىء
للشك على الأقل ، ومنها خلط بعض كتب المقرزى المتأخرة من
عبارات واردة بكتاب الخطط ، مثل أدلة فى نسب الأكراد
والأيوبيين برأى مهم ، وعدم تكراره لهذا الرأى على أهميته
فى كتاب السلوك .

ومن الأمور الداعية للشك أيضا ما جاء بالمواعظ بصدد
رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد ما نصه :

« وآخر من أدركنا فيه الشيخة .. فاطمة بنت عباس
البغدادية ، توفيت فى ذى الحجة سنة ٧١٤ هـ » ، وهذا
التاريخ انصح المتن وصحة سنة الوفاة يقع قبل مولد المقرزى
والأوحدى كذلك بأزيد من خمسين سنة .

والعبارة السابقة نقلناها من أحدث طبعة للمواعظ وأعتقد
أن الأمر في حاجة الى تحقيق دقيق •

وبمراجعة المواعظ (١٢/١) و (٢٥٦/٢) نجد اشارة
المقريزى لعلاقته واتصاله بالأوحدى •

ولنراجع كذلك مقدمة القسم الثالث من الجزء الأول من
كتاب السلوك للمقريزى (ي - ك) التى دبجت بقلم أستاذنا
مصطفى زيادة •

وبالنسبة لاسم فاطمة بنت عباس أورده ابن حجر العسقلانى
فاطمة بنت عياشى فى موسوعته الدرر الكامنة (٢٢٦/٣) •



أعود لكتاب الخطط الذى صدره المقريزى بمقدمة
جغرافية ، تاريخية منبهة • وتناول المدن والآثار المصرية
المقديمة والوسيلة يوصف دقيق مبتدئا بالاسكندرية ، وعنى
عناية خاصة بخطط القسطنطين والقاهرة ، فجاء الجزء الثانى
منه ، وهو نصف الكتاب ، ثبثا زائرا بأحوال القاهرة ،
وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة فى العصور الوسطى ،
فشرح ما تحتويه القاهرة من الخطط وما يقع بها من الآثار ،
فوصف الحارات والدروب والدور والحمامات والقياسيات

والأسواق والأحكار والمناظر والقناطر والبرك والميادين والقلعة
وما بها من منشآت ، والجوامع والمساجد ، والمعابد ، والمقابر ،
وأرباب المذاهب الدينية المختلفة • وحرص المقرئ على أن
يستند في وصفه الى ما يرتبط به كل أثر من أساس تاريخي ،
فاحتوى كل فصل على ما يلائمه ويشاكله من الأخبار •
فصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر •
ولم يتردد المقرئ في تكرار الخبر اذا احتاج اليه ، بطريقة
يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب •

وأول طبعة لهذا الكتاب ترجع الى سنة ١٢٧٠ هـ
(مجلدان) عن مطبعة بولاق القاهرية - ويجدر بالذكر أن
فييت قام بنشر الكتاب نشرًا علميًا ، فأعاد طبع أجزاء منه في
القاهرة عن مطبعة المعهد الفرنسي للآثار (١٩١١ - ١٩٢٣ م)
كما أعيد نشره بالقاهرة في أربعة أجزاء ١٣٢٤ ، ١٤٢٥ هـ •

وأذكر أنني قرأت الأستاذنا/ مصطفى زيادة أن المسيو
جاستون فييت قد وهب ثلثي عمره في اخراج خطط المقرئ •

•
وأتابع المقرئ الخطط بتأليف كتاب في تاريخ الفسطاط ،
أسماء (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط) وهو
في الواقع تاريخ لمصر الاسلامية في عهد الولاة •

وأُتبع المقرئى ذلك بكتاب فى دولة الفاطميين بمصر ،
أسماء اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء وقام أستاذنا الدكتور
جمال الدين الشيال بنشر هذا الكتاب فى طبعة مزيدة عن طبعته
الأوربية القديمة (١٩٤٩ م) •

حتى اذا فرغ من أخبار الخلفاء فكر فى تأليف كتاب يكون
تأريخا للأيوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته فى تاريخنا
المصرى الوسيط ، من الفتح العربى الى زمنه ، فكان كتاب
السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذى غدا أساسا
رئيسيا لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين : الأيوبية
والمملوكية الأولى الثانية •

وهذا الكتاب (السلوك) تاريخ لدولتى الأيوبيين
والمماليك ، وكما أوضحنا أتم به المقرئى سلسلة مؤلفاته عن
التاريخ المصرى الوسيط وقد خرج الجزء الأول من السلوك
(١٩٣٤ - ١٩٣٩ م) والجزء الثانى (١٩٤١ - ١٩٥٨ م) وهما
الجزءان الذى قام به زيادة بتحقيقهما من أربعة أجزاء •

وقد أفتتح المقرئى السلوك بمقدمة طويلة فى ذكر العصور
السابقة لموضوع مؤلفه • حتى زوال الدولة الفاطمية وتأسيس
دولة بنى أيوب بمصر • ومن هنا كان البدء الحقيقى لكتاب
السلوك • فاستهله بشرح أصل صلاح الدين الأيوبرى ومولده

وقدومه الى مصر واستقرار الأمر له بها . ثم بدأ فجأة من سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م يكتب على نظام الحوليات ، يورد حوادث كل سنة على ترتيب تاريخي تقريبا ، ثم يختمها بالوفيات ، ويضيف اليها أحيانا ما قد يفوته من أخبار أخرى . و انتهى في هذين الجزئين الى سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٦٠ م .

وعلى الرغم من استناد المقرئ الى ما كتبه المؤرخون السابقون عليه ، فإن ما أورده من حقائق وإشارات لم تحوها مطولات المعاصرين ، إذ أنه نقل وأفاد كثيرا منهم ، وزاد عليهم أحيانا من مراجع أخرى اندثرت ، أو وثائق ديوانية لم يبق منها الا ما حفظه المقرئ في كتابه . والواضح أن المؤرخين الذين جاءوا بعد المقرئ ، نقلوا عنه أو اقتبسوا من كتاباته ، دون الإشارة ، في كثير من الأحيان الى المصدر أو المرجع . وكان ذلك أمرا مألوفاً عند المؤرخين في العصور الوسيطة .



ويلاحظ الباحث أن المقرئ كتب المؤلفات السابق الإشارة اليها لتكون ذبلا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد في كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار المعمورة الاسلامية وبالذات الدولة الاسلامية المصرية التي تناولها قبلا في باكورة مؤلفاته .

ومن أجل ذلك شرع المقرئى (أبو العباس أحمد بن
على بن عبد القادر الحسينى) شرع فى التأليف فى كتب التراجم
والسير ، وأوغل فى مشروعات كبيرين من هذا النوع من
الكتابة ، غير أنه للأسف الشديد - لم يتمهما لضخامة المقياس
الذى بنى عليه كلا منهما •

أول هذين المشروعين ، كتاب (المقفى الكبير) وقصد به
أن يكون معجماً شاملاً لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين
والنصارى منذ أقدم العصور الى ما قبل عصره ، وقدر له
أن يكون فى ثمانين مجلداً ، ولم يستطع أن ينجز منها سوى
سنة عشر مجلداً فقط •

أما ثانيهما : وهو كتاب (درر العقود الفريدة ، تراجم
الأعيان المفيدة) فكان الغرض منه أن يكون معجماً لتراجم
معاصريه ، غير أن المقرئى تركه كذلك دون أن يفرغ من
مراجعته •

•
وصرف المقرئى الكثير من نشاطه الجهم فى التاريخ
الاسلامى العام ، فألف فى السيرة النبوية المطهرة ، وفى قبائل
العرب التى نزلت بمصر منذ الفتح الاسلامى •

وكتب في جغرافية (حزموت) الواقعة جنوب شبه جزيرة العرب ، وكتب في الدويلات الإسلامية التي قامت بالحبشية .

وكتب في التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعى واسهم بنصيب وافر فى هذا الميدان حيث كتب فى الأوزان والأكيال والنقود والمقاييس والموازين ، وكتب فى تاريخ المجاعات والطواعين . وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب (النزاع والتخصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) وكتاب (اغاثة الأمة يكشف الغمة) .

فى الكتاب الأول ارجع المقرئى أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين الى عصبية الجاهلية الأولى ، وأهمل المقرئى جانب الحوادث المريرة والحروب المستمرة ، والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعد كلها أن تكون أسبابا طارئة فى احتدام الخلاف ، وهو يترسم بذلك طريق ابن خلدون وفلسفته فى المقدمة (ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٧) .

أما الكتاب الثانى (كشف الغمة) فتناول المقرئى فيه تاريخ المجاعات التى فزت بمصر منذ أقدم العصور الى سنة ١٤٠٥ م ، وهى السنة التى تم فيها تأليف هذا الكتاب .

وأدى البحث بالمقريزى الى أن أسباب ما ينزل بالناس من
مجاعات وطواعين أغلبه يرجع الى :

« سوء تدبير الزعماء والحكام » .

« غفلتهم عن النظر فى مصالح العباد » .

وفى رأينا أن هذا تخريج اقتصادى سبق به المقريزى عصره
الا أننا لا ننكر تأثير المقريزى بما كتبه ابن خلدون فى المقدمة
(ص ٢٣٣) فى فصل الجباية وسبب قتلها وكثرتها وما يليه
من الفصول الدائرة حول هذا المعنى .

ونؤكد هنا ان تأثير ابن خلدون على المقريزى فى تأليف
(اغاثة الأمة وكشف الغمة) بالذات تعدى الى طريقة العرض
والأسلوب وفواتح الأبواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة
العامة .

وفى الحقيقة ان المقريزى تأثر بابن خلدون ومقدمته فى
كتابه (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم)
و (اغاثة الأمة وكشف الغمة) ، وغيرهما من مؤلفاته تأثرا فاق
حد الإعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها :

« لا يـ لم يعمل مثالها ،

- انه لعزیز أن ینال مجتهد منالها ،
- اذ هی زبدة المعارف والعلوم ،
- نتیجة العقول السلیمة والفہوم ،
- توقف علی كنه الأشياء ،
- تعرف حقيقة الحوادث والأبناء ،
- تعبر عن حال الوجود ،

— تنبیء عن أصل كل موجود » (الضوء
اللامع ١٤٤/٤) •

وهذا الوصف يدل دلالة واضحة على دراسة المقریزی
لمقدمة ابن خلدون دراسة وافیه ، كما يدل علی فهمه لمحتوياتها
المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس الى غيرها مما عرفه
خلال قراءاته الدائبة التي يبدو أنها لم تنقطع الا بوفاته
سنة ١٤٤٢ م •

وفي الجزء الثاني من كتاب السخاوي الضوء اللامع
(ص ٢٤) ، وفي الجزء الأول من (المواظ والاعتبار)
للمقریزی (ص ٥٥) ما يشير الى عظم الصلة والعلاقة بين
التلميذ المقریزی والأستاذ عبد الرحمن بن خلدون حيث أشار

المقرئى الى ابن خلدون اشعاره التلميذ لإستاذة ، ولم يخرج
 فى أن يستشهد بعبارة لاذعة لابن خلدون الأندلسى فى وصف
 المصريين ، ونصها حسبما ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة :
 « قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه
 الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من يوم الحساب » .

والواقع أن المقرئى كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع
 كثير الدآب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد
 به ما خلفه من مؤلفات لم ير النور بعضها حتى الآن .

ان نظرة واحدة على ثبث مؤلفاته الكفيلة بإيقافنا على مدى
 المامة بالتاريخ والخطط والترجمة والسكة والأوزان والمقاييس ،
 وهذا فضلا عن معرفته بعلم الحشرات والمعادن والطب
 والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث .

ان أعظم اهتمامه كان موجها لعلم التاريخ ، لأنه كان
 مغرى به ، مغنيا بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءا كبيرا
 معرفة تامه ، وحفظ منه كثيرا عن ظهر قلب . وقد أقر بذلك كله
 تلميذه النجيب وأشهر معاصريه : أبو المحاسن يوسف بن تغرى
 بردى الذى قال فى كتابه النجوم الزاهرة : (٢٧٩/٧) : « وفى

الجملة هو أعظم من رأيناه في علم التاريخ وضربه ، مع معرفتي
لن عاصره من علماء المؤرخين ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس في
التعصب فائدة » (١) .

وإذا أردنا الحديث عن أخلاق المقرئ الشخصية ، فقد
أجمع المعاصرون له على أنه عاش ومات رجلا فاضلا دينيا ،
مجتادا أميناً في عمله ، حتى أن السخاوي الذي حمل كماداته حملة
شعواء على كتاب المقرئ المواعظ والاعتبار يقول : أن المقرئ
كان على جانب عظيم من :

« حسن الخلق ، كرم العهد ، كثرة التواضع ، علو
الهمة لن يقصد ، والمحبة في المذاكرة ، والمداومة على التهجّد
والأوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة
ليته » .

ويقول : (حملت سيرته في مباشراته) أي في الوظائف
التي تولّاها قبل الانصراف للبحث والتأليف . (التبر المسبوك
للسخاوي ص ٢٢ - ٢٤) .

(١) من المؤرخين الذين عاصروا المقرئ : السقلائي ، والمبشي ،
وأبن مريشاه ، وخطيب بن شاذي ، وبيهاه الدين الخالدي .

مؤرخ يكتب عن نجومنا الزاهرة :

أبو المحاسن بن تغرى بردى (١)

المؤرخ الذى معنا احتل مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقرئى والعينى ، أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . اسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الجوينى ، كان مولده بالقاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م ، بدار الأمير منجك اليوسقى ، قرب مدرسة السلطان حسن ، بحي القلعة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان برقوق ، وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى (يونانى) جميل الطلعة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن خاصة بماليكه ، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه الى فرقة الخاصكية ، وهى إحدى فرق المماليك السلطانية ، ثم أصبح تغرى بردى موضع رعاية مولاه ، فتقلد

(١) من الذين عاشروا أبو المحاسن : نور الدين الصوفى والنسفاوى .

كثيرا من الوظائف الرفيعة في الدولة المملوكية ، واشترك في أحداث ذلك العهد حتى وفاة برقوق سنة ١٣٩٨ م .

وقام تغرى بردى أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير في حياة الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسئوليات كبيرة ، اذ تولى نيابة دمشق السورية ، وهى تعد من أكبر النيابات في الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسئوليات الدفاع عن مدن الشام ضد غزو التتار بقيادة تيمور لانيك ، وانهزم السلطان وتغرى بردى واعدوا الى القاهرة . وبعد جلاء التتار عن دمشق عاد ليتولى نيابة دمشق للمرة الثانية . ونتيجة للفساد والوقية وهى سمة مملوكية متعارف عليها اتهم والد مؤرخنا بالحياة العظمى ! فشق عصا الطاعة وتمكن من الهرب الى بلاد التركمان ، حيث اقام مدة منقيا . ثم عفا عنه السلطان فرج بن برقوق بعد ذلك ، وطلب اليه العودة للقاهرة ، وإصدر أمره بتوليته أتابكية العساكر بالديار المصرية (وزيرا للدفاع) ، وقدم برقوق للرجل عربون صداقة وعفو حيث تزوج السلطان برقوق من كبرى بنات تغرى بردى ، واسمها فاطمة ، ثم أصدر أوامره بتوليته دمشق للمرة الثالثة . وظل بها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م . وفى نفس السنة قتل فرج بن برقوق في انقلاب دموي (٨١٥ هـ) اشترك فيه العبادل المستعين بالله

الخليفة العباسي والقضاة الأربعة ، والأميران نوروز والمؤيد
شيخ ، ليعتلى الأخير عرش السلطنة المملوكية الثانية .

وترك تغرى بردى من الأبناء : ستة ذكور ، وأربع بنات ،
منهن خوند فاطمة زوج السلطان فرج بن برقوق المقتول .

وكان أبو المحاسن أصغر أولئك الأبناء الأولاد والبنات
جميعا اذ توفي والده وهو فى الثانية من عمره ، فتولى تربيته
أضى القضاة/ ناصر الدين بن العديم الحنفى ، وهو زوج أخته
لثانية واسمها يريم .

ثم توفي ابن العديم وتزوجت يريم من قاضى القضاة
بلال الدين البلقينى الشافعى ، فأكمل البلقينى تربية الصبى الى
أن كبر وترعرع .

وتوفى البلقينى سنة ١٤٢١ م ، فصار أبو المحاسن يجمع
كنف جماعة من أكابر مماليك أبيه ، فتعهدوه بما احتاج من الوعاية
وعيش وتعليم حربى ومدنى .

وحكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوما وهو فى
الخامسة من عمره الى حضرة السلطان مؤيد شيخ ، بعد أن علمه
بعض من معه أن يطلب الى السلطان أن يعطيه (خزائنه) ومعناه
فى مصطلح المماليك اقطاع من الأرض .

ويقول أنه جلس عند المؤيد شيخ ، وكلمه وسأله عن حاجته إلى الخبز ، فغمز لمن كان واقفاين يديه وهو لا يدرى فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطاني ، فأخذه السلطان بيده وناول له الأبى المحاسن ، وقال له خذ هذا خبز كبير مليح ، فأخذه بيده ولاقاه على الأرض ، وبالتطبع هذا سلوك مملوكي فظ ، ويضيف أبو المحاسن انه طلب من السلطان أن يعطى هذا الخبز للفقراء !! أما هو فيريد خبزا بفلاحين ، يأتون بالغنم والأوز والدجاج ، فضحك السلطان وأعجب به — كما يقول — غاية الإعجاب وأمر له بثلاثمائة دينار ووعد به بما طلب وزيادة .
ولن أعلق على ذلك فهذه نظرة الممالك للفلاح المصري .



على كل حال لقد نشأ أبو المحاسن في بسطة من العيش ، ويتحجب الباحث من قوله في النجوم الزاهرة انه عاش فقيرا من غير مال ولا عقار بعد وفاة والده ، لاستيلاء السلطان فرج بن برقوق على جميع ما خلفه تغرى بردى من ثروة ومتاع وإقطاع له وعلى اقتراض صحة ذلك فقد كفله أو صياؤه كفلا .
تنشئته ونفقته وتعليمه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك مملوكة السلطان .
قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره بمصر هـ .
والشام والحجاز ، ومنهم المقرئ ، والعيني والعسقلاني وابن

الشماع بحلب السورية ، وكثير غيرهم من أصلاء هذا العصر
بالشرق الأدنى من علماء المسلمين .

لقد أحب أبو المحاسن التاريخ دون سائر العلوم التي
تلقاها وأجيز له فيها . فنقرأ أنه لازم المقرئى والعينى من أجل
دراسة التاريخ ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما ونمطهما في
التحصيل والكتابة الغزيرة ، واجتهد في ذلك المجال الى
الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، هذا فضلا
عن معرفته باللغة التركية ولعل نظرة عابرة في مقدمة كتاب
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٣/١ - ٢٨) تدلنا
على ذلك .

غير أن تفضيل أبى المحاسن لدراسة التاريخ بالذات
يرجع في الغالب - كما يرى أستاذنا/ مصطفى زيادة - الى
ما استقام للعينى بواسطة البراعة في التاريخ من المكانة السامية
التي شغلها في بلاط السلطان برسباى الذى تولى الحكم فى
الفترة ما بين (٨٢٥ هـ الى ٨٤٢ هـ) ، اذ طمع أبو المحاسن
هو أيضا فى ذلك لنفسه محاولا استرداد هبة أسرته المفقودة
عند الحكام القادمين ، فلما مات المقرئى سنة ١٤٤٢ م ، والعينى
بعده سنة ١٤٥١ م خلا الجو لأبى المحاسن ، ولم يوجد من
ينازعه فى زعامة المؤرخين على عصره .

وأشار مؤرخنا الى ذلك في غبطة ورضا ، وجسارة مغلقة بالغرور ، اذ كتب بصدد وفاة أستاذة العيني انه لما انتهى مع المشيعين لجنازة العيني من الصلاة على المتوفى قال له بدر الدين الحنبلى : خلا لك البر بيض وأسفر . ولم يرد عليه ، وأرسل اليه بعد ذلك الى منزله ورقة مكتوبة بخطه يستفسر منه عن بعض أعيان التاريخ ، الا أن الحنبلى اعتذر بتشتت ذهنه وكبر سنه ، ثم أبسط المدح والثناء للأبى المحاسن وكتب اليه بأنه فارس الميدان وأستاذ الزمان .

وتاريخ هذه الورقة المشار اليها يعود الى سنة ٨٤٩ هـ .
 أى قبل وفاة العيني بعامين فقط . (النجوم الزاهرة ٣٦٦/٧) .

ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين فى مصر لأبى المحاسن ، فإنه لم يتفق له أن صار نديما دينا لسلطان من سلاطين المماليك ، يقرأ له التاريخ فى أمسياته ، مثلما كان للعيني مع برسبائى . على أنه تقلد الكثير من الوظائف الحكومية فى عهود مختلفة ، وكان له من مولده وتنشئته ، وقرائاته ومصاهراته وصداقاته ، ما جعله من رواد البلاط السلطانى .

لذلك كان أبو المحاسن من المختلفين لبرسبائى ، حتى صحبه فى حلقات الصيد والقبض والنزعة .

وحسنت صلته بالسلطان جقمق (تشبمق) الذى تولى من سنة ١٤٣٨ م الى سنة ١٤٥٣ م ، حتى انتظمت زياراته لمجلسه مرة كل أسبوع ، ضمن رجال العلم والأدب ، وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صجة قديمة ومجبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان سيف الدين ابن اينال الذى تولى من سنة ١٤٥٣ م الى سنة ١٤٦٠ م ، فقد كانت زياراته لبلاطه لم تعد المرة أو المرتين فى العام كله .

وسرعان ما عاوده الحظ فى السلطان خشقدم الرومى ، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبراء .

وعاش مؤرخنا ليرى أوائل سلطنة قايتباى سنة ١٤٦٨ م ، ويكتب عنها مما يدل على أنه لم يلق فى بلاط السلطان عناية أو قبولا .

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة والتي صرف معظمها وهو يحوم حول السلطان وبلاطه استطاع أن يكتب كثيرا فى التاريخ والتراجم ، وأن يبرع فى الفروسية ولعب الرمح ، والرماية ، والبولو ، وحقق الموسيقى والأنعام ، وبرع فى دراسة الايقاع ، وقظم الشعر بالعربية والتركية .

وحج أبو المحاسن مرتين : الأولى سنة ١٤٢٢ م والثانية سنة ١٤٤٥ م . وقام أبو المحاسن فى حجته الثانية بوظيفة باش

المحمل المصرى ، وهى رتبة أقل من أمير المحمل ، ونذكر أمرا طريفا فى هذا المجال أن العادة جرت أن يكون لأمير المحمل رجلان فى معيته يسمى أحدهما باش المينة وشغلها فى حجته الثانية مؤرخنا ، وثانيهما باش الميسرة (ويكون أقل فى المنزلة) وكان قايتباى الذى سيحكم مصر (من ١٤٦٨ م الى ١٤٩٥ م) هو باش الميسرة !!

* * *

يقول لنا ابن الصيرفى أن مؤلفات أبى المحاسن اثنا عشر كتابا ، وصلنا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، أشهرها فى تاريخ مصر الاسلامية من الفتح الاسلامى الى سنة ١٤٦٧ م ، واسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى سبعة مجلدات ضخمة .

وذكر أحد المعاصرين أن أبا المحاسن اختصر هذا الكتاب الضخم فى مجلد واحد اسماء : (الأنوار الظاهرة من الكواكب الظاهرة) ، غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب .

وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرجو محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق هذا الرجاء . وكان فى عزم مؤرخنا

أن يختتمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجعل منه ما جعل
العيني من كتابه (عقد الجمان في تاريخ أهل هذا الزمان) .

وكثيرا ما يشير أبو المحاسن في ثانيا هذا الكتاب الى كتاب
آخر سبق له أن كتبه ، واسمه (المنهل الصافي والمستوفى بعد
الوافي) ، وهو كتاب ملئ بتراجم الأعيان والناهبين من
سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما ، وبعض
ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى من سنة ١٢٥٢ م
الى عصره ، ورتبه أبو المحاسن ترتيبا أبجديا وأراد به أن يكون
ذيلًا وتكملة للكتاب (الوافي بالوفيات) ، لخليل بن أيك
الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ثم اختصر أبو المحاسن هذا
المؤلف في كتاب آخر اسماء (الدليل الشافي على المنهل
الصافي) ، وجعل لهذا المختصر مختصرا اسماء (مورد اللطافة
في ذكر من ولي السلطنة والخلافة) وهذا الكتاب في رأينا
لا يرتقى الى مستوى كتب الرجل الأخرى باستثناء ما فيه من
تاريخ مقتضب للسيرة النبوية العطرة ، لا نجد غير بيانات جافة
باسماء الصحابة والخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين
والفاطميين ، ومن يليهم على مصر الى سنة ١٤٣٨ م .

ولأبي المحاسن بن تغرى بردى مؤلف آخر يكثر من
الاشارة إليه كذلك في نجومه الزاهر ، واسمه (حوادث

الدهور في مدى الأيام والشهور) والمراجع له يرى أنه ذيل
لكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) لأستاذه المقرئ ،
وترتيبه على السنين والشهور والأيام كترتيب السلوك للمقرئ ،
أى أن أبا المحاسن بدأ به من حيث انتهى المقرئ الى
سنة ١٤٥١ م .

وخالف أبو المحاسن المقرئ وغايه قليلا في طريقته من
الاطناب في الحوادث والاقتصار في تراجم الوفيات ، فأطال
في كل منهما قدر ما استطاع الى ما سبق له استيفاءه في (النجوم
الزاهرة) و (المنهل الصافي) لتكثر الفائدة من الطرفين على
حد قوله في مقدمته لكتاب (حوادث الدهور) .

ومن مؤلفات أبي المحاسن كذلك كتاب اسمه (نزهة
الرأى في التاريخ) وكتاب (البحر الزاخر في علم الأوائىل
والأواخر) وجميع الكتب التى تحدث عنها موجودة كاملة
أو ناقصة مطبوعة أو مخطوطة ، فى معظم المكتبات العربية
والاسلامية ، وما عداه فغير مقطوع بوجوده حتى الآن مع
احترامنا الشديد لكل من يخالفنا فى هذا الرأى .

ولأبى المحاسن كتب أخرى فى معارف مختلفة ، لا صلة
لها بصميم علم التاريخ الاسلامى وهى :

— كتاب نزهة الألباب فى اختلاف الاسماء والألقاب .

- كتاب حلية الصفات في الاسماء والضاعات •
- كتاب البشارة في تكملة الاشارة •
- كتاب الانتصار للسان التتار (رسالة في معاني اللغة التركية) •
- كتاب في الرياضيات والموسيقا •
- كتاب السكر الفاضح والعطر الفائح (وهو في التصوف ورأيت صورة منه عن نسخة خطية موجودة في مكتبة الاسكوريال ، تحت رقم ٣٦٧) •



تقد عفيف شديد يوجهه كل من ابن الصيرفي
 (نور الدين) والسخاوى المشاكس دائما ، فقد رماه كل منهما
 بما خال أو شاء من تهم نرى ان فى عبارتها شيئا من الغيرة
 والحسد • يقول السخاوى :

« وبالجملة فقد كان (أبو المحاسن) حسن العشرة ، تام
 العقل — الا فى دعواه فهو حقيق — ••••• لطيف المذاكرة ،
 حافظا الأشياء من النظم ونحوه ، بارعا حسبا كنت أتوهمه
 فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفردا بذلك
 لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تكثر فيه أوهامه ، وتختلط ألفاظه

وأقلامه ، مع سلوكك أفراضه ، وتحاشيه مجاهرة من أدبر عنه
بأعراضه ، وما عسى أن يصل اليه تركي !! » (الضوء
اللامع للسخاوي : ١٠/٣٠٥ - ٣٠٨) •

ونجد الصيرفي يردد هذا المعنى ويفطى لنا زيادة أن
أبا المحاسن كلما فرغ من كتاب يتوجه به الى من يعرف العريية،
فيصلحه له ويصير له به مزية •

وإذا كان السخاوي المصري الأصل والجدود ينقد التركي
(أبو المحاسن) فالمعروف عن السخاوي أن ذلك طبعه وطريقته
ولكن لا أجد مبررا لنقد ابن الصيرفي ، مبررا مقنعا • • !
فالرجل يهودى الأصل كما تدل سيرته فما الداعى لأن تقذف
بيوتات الناس بالأحجار فى الوقت المشيدة فيه منازلنا من
الزجاج المعرض للكسر بسهولة ؟ !

أمر آخر يقوله الصيرفي وذكرناه أن أبا المحاسن كان يدفع
بكتبه لمن يمد صياغتها عربيا حيث أنه لا يجيد العربية -
والواقع أن مبهم الأسلوب العربى الذى كتب به مؤرخو تلك
الفترة مؤلفاتهم التاريخية وغيرها أمر واضح للعيان ، اذ الواقع
أنها تموج بالفاظ وتعاير وجمل لا تمت للعربية الفصحى
بصلة ، وتزخر بعبارات غريبة وإصطلاحات غامضة لا تذكرها

القواميس والمعاجم • وأكثر ما يكثر ذلك في مؤلفات أبى المحاسن وابن اياس ، بل ان أسلوب المقرئ نفسه لم يخل من هنات كثيرة • ويرجع ذلك في رأينا الى دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة بما فى ذلك اليونانى واللاتينى وفروعه فى مصطلحات الجيش والبحرية والدواوين ، مما أدى الى كثير من الخلط بين ما هو عربى صحيح وما هو أجنبى غير جائز الاستعمال • وهذا الخلط فى ظاهره وواقعه عيب يؤسف له ، وكثيرا ما شكنا قراء هذه الكتب التاريخية من عوج أسلوبها وغموضها • غير أن ذلك فى باطنه حسنة لا تنكر ، اذ انه أنموذج لحال اللغة والكتابة فى عصر سلاطين المماليك بمصر والشام ، وهو لذلك مادة ذات أهمية للمعنيين بدراسة تاريخ الأدب العربى فى مصر ، والمشتغلين بدراسة لهجات القاهرة فى مختلف العصور •



نعود لأبى المحاسن وما قيل فيه ، فيتجلى لنا - رغم نقد السخاوى وابن الصيرفى - بقراءة مؤلفات أبى المحاسن أنه كان مؤلفا واسع المعرفة ، شديد التدقيق والتحري فى كتابته ، وأنه كان كدودا ، أميناً ، مجتهداً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين فى العصور الوسطى

بالشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة يضاف الى ذلك أنه اذا أخذنا نقد أبى المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم فى كتبه مقياسا لخلقهم ، وذكرنا قول ابن اياس فيه ، وهو الذى خلفه فى زعامة المؤرخين بمصر ، وضح لنا حقا أنه كان « رئيسا حشما فاضلا ... له اشتغال بالعلم ... » مشغوبا بكتابة التاريخ » (بدائع الزهور لابن اياس ١١٨/١) •

دليل آخر أن الرجل لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته فى يونيو سنة ١٤٧٠ م •

وعاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصرى ، وألقوا فيه مؤلفات قيمة ، وهم بحسب الترتيب الزمنى ابن الصيرفى والسخاوى ، وكل منهما صاحب ترجمة مطولة لأبى المحاسن تكشف عن كثير مما قام بين مؤرخى تلك الفترة من تنافس وغيرة وحسد أحيانا وسوء دخيلة •

السخاوى

مؤرخ هوايته ان يشاكس !!

أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ... السخاوى،
نسبته الى بلده سخا المصرية الواقعة بمحافظة كفر الشيخ الحالية
بمصر ، كان مولده سنة ١٤٢٧ م ، بحارة بهاء الدين لصق
باب الفتوح القديم بالقاهرة . وعاش جده شيخا فقيرا صالحا
يتكسب بتجارة يسيرة في سوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة ،
ويكثر من الاختلاف الى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للافادة
والاعتبار . وكان أبوه عبد الرحمن كذلك في معيشته وتكسبه
وتردده على مجالس رجال الدين ، وطابت صلته ببعضهم
لعلمهم بتقواه وتصوفه .

وترجم السخاوى في الضوء اللامع لكل من جده وأبيه
ترجمة تفيض حنانا وبراً ، وهى العميدة الوحيدة لمعظم الذين
كتبوا عن والد وجد السخاوى .

وكان معظم شيوخ السخاوى ومعلميه من رجال الدين أصحاب أبيه ، ومنهم ابن حجر العسقلانى الذى اختص به وأخيه ، لسبق الصلة بين والده وابن حجر ، وقرب منزله من منزله . ولزم السخاوى ابن حجر أشد الملائمة ، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره ، وأخذ عنه أكثر تصانيفه فى الحديث والتاريخ والتراجم ، وهذا فضلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ . وحلا للسخاوى أن يعد هذه المقروءات والمسموعات وأصحابها عدا دقيقا فى ترجمته لنفسه فى الضوء اللامع ، وهى ترجمة ضافية استغرقت ثلاثين صفحة كاملة ، وليس فى كتابه كله ترجمة واحدة تشبهها أو تقرب منها فى السعة والافاضة والتمدح بأقوال المعجبين به من المعاصرين (الضوء اللامع ٢/٨ - ٣٣) .

وعرف السخاوى عند البعض باسم ابن البارد ، وهى تسمية اشتهر بها جده وأبوه كذلك لسبب غير واضح تماما ، لعله فيما يخص السخاوى على الأقل أنه كان عظيما عند نفسه الى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين ، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد ، ورامهم فى غير واحد من مؤلفاته بالقصور وضعف الرواية والبيان . ومع هذا فالسخاوى نشأ وعاش ممتعا برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ، وبادل الشيخ تلميذه حبا بحب وإخلاصا بإخلاص ، فصار

يرسل اليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره في بيته ليقرأ عليه ،
بل قال فيه ، ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : « إني مع
صغر سنه ، وقرب أخذه ، فاق من تقدم عليه بجده واجتهاده
وتحريه واتقاده » (الضوء اللامع ٨/ ٣٠) وأكثر من هذا
أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه في حفل عرس السخاوي
سنة ١٤٤٤ م ، وجهد في توظيفه بوظائف تدريس علم الحديث
الذي أهله لها أحسن تأهيل •

ثم توفي العسقلاني سنة ١٤٤٩ م ، فقرر السخاوي - الذي
عاش في حزن شديد على أستاذه - قرر الرحيل من القاهرة إلى
بلاد الشام ، ليسلو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل
هناك • غير أن أبويه اثنيان عن عزمه هذا ، فظل بمصر مواصلا
دراسة الحديث ، وأخذ ينتقل في سبيل ذلك بين المدن الكبرى
في مصر : كدمياط ، ومنوف ، والمحلة الكبرى ، ومسنود ،
والاسكندرية وغيرها •

واجتهد السخاوي أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة
لتدريس الحديث الشريف بالقاهرة ، مستعينا بأصدقاء أستاذه
الراحل • ثم انتهى به الأمر إلى الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢ م .
فأقام بمكة المكرمة بضع سنين وجاور بها وزار مدينة الرسول
صلي الله عليه وسلم • وتنقل السخاوي منذ سنة ١٤٥٣ م بين

مصر والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م ،
وحرص على الإقامة بمكة مدة اثر كل حجة ، كما استقر بمصر
أحيانا ليدرس الحديث بمدارس القاهرة ، ودأب أثناء ذلك كله
على التأليف فى الحديث والتاريخ .

واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدى محافظ الوجه
القبلى على عهد السلطان خشقدم الذى تولى حكم مصر من
(١٤٦١ م) الى (١٤٦٧ م) ، ويشبك هذا سيتولى منصب
صاحب الدوادارة الكبرى فى زمن السلطان قايتباى الذى
تولى السلطنة من (١٤٦٨ م) الى (١٤٩٥ م) .

وكان يشبك أقوى الشخصيات على عهد قايتباى ، ويده
فوق وظيفته الكبرى الخطيرة خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق
بها من أملاك وأوقاف ومدارس ومحسوية ، ومن ذلك تعيينه
السخاوى على إحدى وظائف تدريس الحديث التى تعب قبلا
فى الحصول على مثلها أيما تعب ، وسعيه له قبل ذلك عند
خشقدم ليكون قارئاً للحديث بعد امام السلطان : ومع هذا
شاء السخاوى أن يذكر ضلته بذلك الأمير الكبير فى عبارة
كلها كبرياء وترفع ، وأن يقرر أن يشبك سألَه فى المبيت عند
خشقدم ليلتين فى الأسبوع ، ليقراً له نخباً من التاريخ ، كما
فعل العينى مع برسباى : فرفض السخاوى ذلك . كما يزعم .

بل أنه تنصل وأبى ، وأن يشبك ألتمس منه أن يحضر اليه ليقراً
تصانيفه فامتنع - وقد قال السخاوى ذلك فى ترجمته لهذا
الأمير المحسن البذول مؤكداً تكرار اجتماعه به ، زاعماً حرص
يشبك على ذلك ، ورغبته فى تحصيل أشياء من تصانيفه ،
وأسمع بعض أولاده وأصدقاءه كتاب المسلسل فى الحديث
للسخاوى ، ويدعى أنه لو وافقه على مزيد من الاجتماع به
لتزايد إقباله ، ولكن الخيرة فيما قدر (الضوء اللامع
١٠/ ٢٧٢ - ٢٧٤) .



عنى السخاوى المصرى بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى
فى أربع صفحات من ترجمته لنفسه فى الجزء الثامن من الضوء
اللامع (ص ١٥ - ١٩) تحوى قائمة طويلة بأسماء كتبه
ورسائله ومقالاته ، وهى جديرة ببحث العلماء والباحثين
واستقصاء الراغبين فى احياء الكتب العربية المبعثرة بمختلف
مكتبات العالم .

ومن هذه المؤلفات كتابه الشهير (التبر المسبوك فى ذيل
السلوك) والنسخة التى فى مكتبتى تقع فى أجزاء أربعة وتم
طبعها بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة بتبدىء من سنة ٨٤٥ هـ
وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن

التاسع الهجرى.، على حد قول السخاوى نفسه ، وهذا فضلا
عن اشارات المعاصرين بصدده .

والثبر المسبوك كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ
المقريزى المشهور (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، وكان تأليف
(الثبر المسبوك) اجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة
الدوادرارية الكبرى ، أى أن السخاوى كتبه زمن السلطان
قايتباى . ويظهر ان السخاوى شغف بتكميل كتب السابقين
أو تلخيصها ، اذ أنه ألف كتابا وجيز الكلام فى ذيل (تاريخ
دول الاسلام) تكملة لكتاب الذهبى المؤرخ (١) .

وكتب الذيل المتناهى تكملة لتأليف ابن حجر العسقلانى
فى قضاة مصر ، كما ألف الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب
الجزرى (٢) .

أما ملخصاته فمنها كتاب المنتقى من تاريخ مكة للفاسى ،
وكتاب تلخيص تاريخ اليمن مؤلف لم يذكر السخاوى اسمه
ولعله الفاسى كذلك .

(١) تولى الذهبى (٨٤٨ هـ) صاحب التاريخ المعروف بـ (تاريخ
الاسلام) والذهبى من كتاب عصر الموسوعات حيث ألف فى الجامع الضخمة
والموسوعات الشاملة .
(٢) (رفع الامر من قضاة مصر) كتاب ادرج فيه العسقلانى للقضاة
وطبقاتهم وحياتهم .

وللسخاوى نحو مائتى كتاب فى الحديث والفقه والطبقات
والتاريخ وسنعرّف بكتابين له تعريفًا سريعًا •

(الاعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ) وهو مقالة طويلة فى
قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين ، وبه صفحات ضافية
فى تاريخ التأريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم
ومصائر الدول •

وله فى التراجم كتاب (الضوء اللامع فى أعيان القرن
التاسع) وهو معجم زاهر يقع فى اثنى عشر جزءًا ، خص جزءًا
منه للنساء • ونفس الشئ كان أستاذہ العسقلانى قد فعله فى
(الدرر الكامنة) • وتناول السخاوى فيه الترجمة لأهل القرن
التاسع (الخامس عشر الميلادى) ، من سائر العلماء والقضاة
والصلحاء ، والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء
والمباشرين والوزراء ، فى جميع أرجاء العالم الاسلامى ، شرقًا
وغربًا ، بل أنه أورد بعض المشهورين من أهل الذمة • ورتبه
على حروف المعجم ، على أن مؤلفه لقي النقد من المؤرخين
المعاصرين أمثال ابن اياس والسيوطى ، نظرًا لما ابتلى به كتابه
من تصغير الكبير ، وتحقير الصغير ، ممن ترجم لهم •
لقد أبسل الرجل نفسه للوم المعاصرين وتجريح اللاحقين ،
ومن ذلك قول ابن اياس فيه بأنه « ألف تاريخًا فيه كثير من
المساوىء فى حق الناس » •

وقول السيوطى قرينه مستفهما مستنكرا : « ما ترون فى رحل ألف تاريخا جمع فيه أكابر وأعيانا ، ونصب لأكل لحومهم خوانا ، ملأه بذكر المسالب (المساوىء) وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاما على قدر أغراضه ، والأعراض هى الأغراض جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير .. » يقول السيوطى هذا الكلام فى كتابه الذى ألفه خصيصا للرد على السخاوى واسماه (الكاوى فى الرد على السخاوى) أو (الكاوى على السخاوى) وهذا الكتاب مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ولم يخرج الى النور حتى كتابة هذه الدراسة ، ونأمل أن تتاح الظروف لنا كي نخرجه الى جمهور القراء لما يثريه هذا الكتاب من قضايا عديدة تحتاج الى درس وتحليل .

لقد اشتد الخصام بين السيوطى والسخاوى مدة طويلة ، وأضطرم الجدل والنقاش بينهما ردحا من الزمن ، فرشق كل منهما صاحبه بأقذع أنواع التهم ، حتى حال الموت بينهما ، اذ توفى السخاوى بالمدينة المنورة سنة ١٤٩٧ م ، وبقي السيوطى بعده تسع سنين .

ابن اياس بين « البدائع » و « الوقائع »

ابن اياس رجل من الذين تداولوا الزعامة في حلبة التأليف
فى التاريخ الاسلامى •

اسمه محمد بن أحمد بن اياس المصرى الحنفى وأورد
بروكلمان اسمه كاملا على هذا النحو : « أبو البركات
محمد بن أحمد بن اياس زين الدين (أو شهاب الدين)
الناصرى الجركسى الحنبلى » وكرر بروكلمان نسبه الى الحنابلة
فى ملحقة لكتابه ، وهو خطأ بين ، فلم نسمع ان حنبليا واحدا
قام ابن اياس بالتلمذة على يده •

كان مولد ابن اياس بالقاهرة المملوكية سنة ١٤٤٨ م ،
أحدى وعشرون سنة قبل وفاة أبى المحاسن • وابن اياس شبيه
بأبى المحاسن من حيث ان كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، على
أن ابن اياس كان أقدم عرقا فى المجتمع المملوكى ، فنحن لا ندرى
من أصل أبى المحاسن بن تفرى بردى سوى أخبار أبيه وأمه

منذ مجيئهما الى مصر في عهد أستاذهما السلطان برقوق ،
الا أننا نعرف الجد الأكبر لابن اياس ، واسمه ازدرم العمرى
الناصرى (أبو ذقن) الشهير بالخازندار .

وكان ازدرم من أمراء الدولة المملوكية الأولى زمن
السلطانين : حسن بن الناصر محمد الذى تولى من ١٣٤٧ م
الى ١٣٥١ م ثم عاد لتولية الحكم ثانية من ١٣٥٤ م الى
١٣٦١ م — وشعبان بن حسن الذى تولى ١٣٦٣ م الى ١٣٧٦ م
وتولى مدة حكم كل منهما وظيفة أمير سلاح ، وقال فى عهد
شعبان بن حسن حظوة وثقة خاصة ، وتقلب فى نيابات :
صفد ، وطرابلس ، وحلب السورية ، واختير أواخر أيامه لنيابة
دمشق ، ثم وافته المنية وهو فى الطريق اليها سنة ١٤٦٦ م
على عهد خشقدم .

ولدينا معلومات قليلة بصدد جد ابن اياس لأبيه ، واسم
اياس الفخرى ، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، وقد
وصل الى درجة حكومية كبيرة ، حيث تولى وظيفة الدوادار
الثانى زمن السلطان فرج بن برقوق .

أما والد ابن اياس ، واسمه شهاب الدين أحمد ، فكان
على قول ابنه من مشاهير أولاد الناس وهى طبقة الصفوة
المملوكية ، أى أنه من أفراد تلك الفرقة المملوكية التى ضمت

أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة ، حيث جرت العادة أن يعطى للواحد منهم اقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى رعاية لسلفه ، بشرط أن يندمج فى الرديف السلطانى ، ويكون صالحا للخدمة فى احدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم ولعل مراجعة صبح الأعشى للقلقشندى (١٥/٤) ودائرة المعارف الاسلامية (مادة ابن اياس) تقيدها فى هذه النقطة .

وذكر ابن اياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من المحبين الى كثير من أمراء الدولة وأربابها ، وأنه عاش نحواً من (٨٤) سنة ، وأنه أنجب فى حياته الطويلة (٢٥) ولداً ما بين ذكور وإناث ، بقى منهم بعد وفاته سنة ١٥٠٢ م بنت واحدة وصبيان ، أحدهما محمد بن اياس نفسه ، وثانيهما الجمالى يوسف . أما البنت فلعلها هى التى مات عنها زوجها الأمير قرقماش المصارع ، وهو من أمراء العشرات زمن السلطان قايتباى ، ووظيفته (أمير آخور رابع) فى البلاط السلطانى ، وكانت وفاته سنة ١٤٧٢ م فى معركة (البيرة) على نهر الفرات العراقى ، حيث ظهر الجيش المملوكى فى عهد قايتباى وبقيادة الأمير يشبك بن مهدي بجيوش حسن الطويل (أوزون حسن) ملك التركمان المعروفين باسم الشاة البيضاء (ألك كوتلو) . أما الصبى الجمالى يوسف فكان من الزرد كاشية (هندسة

المذفعية) ، على عهد السلطان قنصوه الغورى الذى جلس على عرش مصر من (١٥٠٠ م) الى (١٥١٦ م) وقتل تحت سنايك الخيل العثمانية فى موقعة مرج دابق بالقرب من حلب . ويظهر من كلام ابن اياس وغيره أن يوسف هذا كان خيرا بفنه ، ويده وظيفة رئيسية فى عمله .

يتضح من هذه الاشارات التى ذكرناها أن ابن اياس مؤرخنا الموسوعى نشأ فى وسط مملوكى بحت ، وأنه مت الى بعض رجال الدولة المملوكية فى عهد قايتباى ومحمد بن قايتباى والظاهر قانصوه الأشرفى ، وأشرف جانبلاط وقنصوه الغورى بصلة المصاهرة والقربة والصداقة . غير انه مما يدعو للدهشة والاستغراب أنه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وان مبلغ ما يعتمد عليه الباحث لكتابة ترجمة لهذا المؤرخ الكبير لا يعد تنقبا مبشرة فى كتبه التى ألفها هو ، وعبثا يحاول الباحث عندما يراجع الكتب المعاصرة والمتأخرة لعله يظفر بشيء ، يقرأ للسيوطى وعبد الباسط بن خليل الجنفى وهما من أساتذة ابن اياس بتقريره هو ، وكمؤلفات السخاوى والغزى والأعظمى واليورينى واليمنى والمجيبى والمرادى ، وهم أصحاب كتب جليلة فى التراجم والسير للأعلام القرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لمؤرخنا ابن اياس لا تعجز
الباحث عن محاولة الكتابة عنه ، بل هذا فقدان في جذباته
خسارة مشيوبة بزلح لا بأس به وان جاء سليبا من وجهة
النظر العلمية ، بمعنى أننا نعتمد فيما نكتب على إشارات
المؤلف عن نفسه ورجال عصره فيما ألف من كتب ، فيستشف
منها موقفه من الحوادث ، ويسبر بها دخائل شخصيته وأخلاقه .

ومن تلك الاشارات الخاصة يهودية ابن اياس أنه نشأ
كأبيه شهاب الدين أحمد ، وكأبي المحاسن كذلك ، في فرقة
أولاد الناس .

وحج ابن اياس سنة ١٤٧٧ م دون أن يقوم على وظيفة
معينة في الركب المصرى ، كتلك التى اسندت الى أبى المحاسن
ابن تغرى بردى (باش ميننة المحمل) في حجه .

على أنه شهد فى هذه الحجة ما لقيه الحجاج فى ذلك
العام من عنت وغلاء وفناء بمكة المكرمة ، بسبب ما وقع وقتذاك
بين السلطان المملوكى وبعض المكيين ، وجاء وصفه لما حدث
برهانا على ما هنالك من دخن دائم وكره متبادل ، بين مثلى
السلطان المملوكى وذوات الحجاز وأعرائه ، طوال عهد
الماليك .

وواضح أن مؤرخنا الارستقراطي قضى معظم حياته متمتعا باقطاع وافر ، يرجح البعض انه من لدن السلطان الغورى المعروف ان الغورى تولى السلطة ١٥٠٠ م وقتل في مرج ذابق سنة ١٥١٦ م أى أنه جلس فى الحكم حوالى (١٦) عاما فقط اذن على حد القول السابق تكون الفترة التى عاشها فى بجنوحة وزغد حوالى (٢٨ عاما) لأن ابن اياس مات حوالى سنة ١٥٢٨ م ولكننا نرى أن الاقطاع الوافر الذى وفر له جوا مستقبلا حصل عليه من قبل الغورى بكثير ولعله ورثه عن أبيه أو عن أجداده وبذلك انصرف ابن اياس للكتابة والتأليف فى التاريخ بدون أى مشاكل ، كما يقال : انه نظم الشعر والنزل والمواويل والموشحات بأنواعها .

عاش متمتعا عن كثر حوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وكان شديد الاحساس بما يجرى فى دولة المماليك من عوامل التداعى .

على أن منظومات ابن اياس توجب علينا الالتفات : فمنها ما هو مدح أو رثاء لسلطان أو سلطنة أو أمير ، ومنها ما هو تهنية بالشفاء من سقم ، أو النجاة من محنة لعين من أعيان الدولة ، ومنها ما هو نقد مباشر أو تعقيب على بعض أعمال الحكومة .

فهل نستخلص من ذلك كما ذهب المستشرق (مرجليوث)
أن ابن اياس صاحب « كتاب تاريخ مصر المشهور ببداية
الزهور في وقائع الدهور » تولى وظيفة مؤرخ الدولة في
الحكومة المملوكية ؟ !

ابن اياس لم يذكر لنا شيئاً من ذلك عن تعيينه
كمؤرخ رسمى - في مؤلفاته - ونحن في مذاكرتنا للتاريخ
المملوكى لا نعرف وظيفة بهذا الاسم ولا اعتقد أن النظام المملوكى
عرف وظيفة بهذا الاسم .

هل كان الرجل من رجال الأدب المشغوفين بالعيش على
هامش الحاشية السلطانية ، المتصلة ببعض رجالها كأيـه
من قبل ؟ !

هل لجأ ابن اياس للشعر بحثاً عن الشهرة لعله يضمن
بفرصة تقربه من السلطان أكثر وأكثر ؟

هل أراد الرجل لنفسه مع السلطان محمد بن قايتباى
مركزاً مشابهاً لمركز العيني مع السلطان الأشرف برسباى ؟
أو لمركز أبى المحاسن بن تغرى بردى مع السلطان المرجو
محمد بن حقيق ؟ !

ولكن ابن قايتباى تولى (٣ سنوات) فقط لم تكن كفيـلة
بتحقيق أحلامه وطموحاته ؟

فليكن للرجل وظيفة أى وظيفة فى المحيط المملوكى
أو فليكن بعيدا عن أى وظيفة فالذى نعتقد أن أشعاره
ومناسباتها الخاصة والعامة ، تؤكد أنه عاش فردا متتبعا عن
كتب لحوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وليس ذلك بصفته
مؤرخا معنيا بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلا
حيا ، حساسا بما يجرى فى دولة بدت عليها مخايل الزوال
والاحتضار ، وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه
قصيدته بصدد ضرائب المشاهرة التى ألغها الغورى أواخر
أيامه ، ومرثيته التى قالها فى سقوط دولة المماليك واعدام
طومان باى شنقا على باب زويلة ودخول العثمانيين القاهرة .

وحدث لابن اياس فى منتصف سنة ١٥٠٨ م ما عكر عليه
صفو حياته المطمئنة ، اذ تازمت أحوال السلطان الغورى لضيق
سبل المال اللازم للصرف على المماليك الخاصة به ، فأضطر
الى اجراء ضغط عاجل للمصروفات فعمد الى اخراج أولاد
الناس من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ، وقطع رزق الأوقاف عن
أهلها ، وأطلق لماليكه العنان ليهاجموا أصحاب تلك الاقطاعات
فى بيوتهم ، ويأخذوا منهم المال والطعام والأثاث ، والمحاصيل
غصبا وضربا ، اذا احتاج الأمر الى « البهدة » و « الاحراق » .
وعن طريق الدس والمكائبات ذهب اقطاع ابن اياس الوافر

غصبا للمماليك الغورية ، غير أنه لم يبق بغير اقطاع مدة طويلة ،
اذ وقف للسلطان الغورى أوائل سنة ١٥١٠ م بحكايته مطولة
وقدمها اليه وهو فى طريقه للعب الكرة بميدان القلعة (كرة
البولو) ، فاستجاب السلطان لشكوته ، ورد عليه اقطاعه ،
ومدحه ابن اياس من أجل ذلك بقصيدة مطولة من نظم
المعتاد .

غير أن ابن اياس لم يكن من المعجبين حقا بالغورى
وسياسته ، يشهد بذلك ما كتبه بصدده بعد رحيله فى كثير
من المناسبات بكتابه الكبير فى التاريخ ، واسمه (بدائع الزهور
فى وقائع الدهور) وهذا الكتاب الشامل عن تاريخ مصر
عالج باختصار تاريخ مصر حتى نهاية العصر الأيوبى ، وما كتبه
عن العصر المملوكى حتى زمن السلطان قايتباى يغلب عليه العجلة
والسرعة . على أن ابن اياس أخذ منذ بداية عهد قايتباى ،
يسهب فى وصف الأحداث ، ويورد بالتفصيل تراجم كبار
الموظفين ، وما جرى من الوفيات فى كل شهر . واشتهر فى
الأجزاء المعاصرة فى تاريخه بدقة الملاحظة واستقصاء الخفايا
وقسوته فى الحكم على الناس وكان على جانب كبير من القدرة
على النقد ، فلم يقنع بسرد الحوادث والوفيات والوقائع على
نحو ما جرى عليه المؤرخون السابقون له ، بل صيّر يشرح
وفيلسف ما يجرى من الأحداث ، وشيخه على ذلك اهتمامه

الوثيق بأعيان البلاط المملوكي والسلطان ، وما كان يبلغه به أخوه من أخبار القلعة ، مقر السلطان ، ولا سيما ما يتعلق بسلاح المدفعية وما كان من إهمال أمرها زمن السلطان الغوري . يضاف إلى ذلك ما أورده عن الإدارة المالية الفاسدة ، وقد تجاوز ابن أياس الحد في لوم الغوري على ما تعرضت له البلاد من أزمة مالية حادة .

ومما يجعل لبداية الزهور أهمية كبيرة ، أنه المصدر العربي الوحيد الذي يعالج مستهل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . فتناول نظام الحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية أحيانا لإهمال مصالح المصريين . برغم ما أحاط السيادة العثمانية من هيبة ورهبة .

والواضح أن كتاب ابن أياس يزخر بالفاظ وتعايير وجمل لا تمت للغريبة الفصحى بضلة ، ولعل ذلك يرجع إلى ذبوع اللسان التركي بين طبقات الخاصة ، وإلى دخول كثير من الألفاظ الأجنبية في مصطلح الجيش والبحرية والدواوين .

نعود لنقول : أن هذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثماني ، هو الذي جعل ابن أياس خليقا بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين في مصر الإسلامية ، وأواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل القرن السادس عشر الميلادي .

وبدأ ابن اياس تأليف موسوعته التاريخية الشهيرة حوالى
سنة ١٤٩٣ م ، وظل معنيا بها حتى أواخر أيامه ، فجاءت فى
(١١) جزءا ، وكان فى عزمه أن يضيف اليها لتكتمل (١٢)
جزءا ، لولا موته سنة ١٥٢٤ م .

وقد أطلعت على صورة فى أربعة أجزاء تملكها مكتبة
الفتاح فى أسطنبول التركية وهى غير متتابعة الا أنها بخط
ابن اياس ، وفى نهايتها نعرف أنه أتمهى من الجزء الرابع. أوائل
سنة ٩١٠ هـ (١٤٩٥ م) ، ومن الجزء الخامس أواخر تلك
السنة الهجرية نفسها ، ومن الثامن أواسط سنة ٩١٣ هـ
(١٥٠٧ م) ، ومن الجزء الحادى عشر أواخر ٩٢٨ هـ
(١٥٢٢ م) . ووعد ابن اياس فى نفس الصفحة التى وردت
بها الاشارة الأخيرة أنه سوف يقوم على كتابة الجزء الثانى عشر،
وهو ما لم يكتبه بسبب رحيله عن عالمنا الفانى ، وهناك
احتمال أن يكون الرجل قد كتبه بالفعل ولم يعثر عليه أحد
حتى الآن .

ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخا
بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هى
أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن احدى هذه النسخ
الناقصة. نشر الكتاب فى القاهرة ، فجاء بعيدا عن الأصل ، خلوا
من أهم جزء من أجزائه .

وكان أمرا طيبا أن تتدارك هذا النقص جمعية المستشرقين
 الألمان باستامبول (ثم بيروت) ، فنشر الأستاذ/ كالة
 والدكتور/ محمد مصطفى العجى ، والمرجوم سوير تهيم ،
 أجزاء ثلاثة من هذا الكتاب ثم عمل د. محمد مصطفى العجى
 على اخراج بقية أجزاء الكتاب بجهد مشكور ألقى جله على
 عاتقه كذلك أخرج فهارسه وقد استحق عام ١٩٨٧ م جائزة
 الحكومة المصرية تقديرا له ولجهده المميز في بدائع الزهور
 لابن اياس .

كما نأمل أن تحل مشكلة المحقق مع هيئة الكتاب في
 اخراج فهارس الكتاب في طبعة شاملة كي تفيّد القراء
 والباحثين ، تلك الفهارس التي خرجت في طبعة محدودة جدا
 لصالح جمعية المستشرقين الألمان .

من مؤلفات ابن اياس الأخرى في التاريخ كتاب (عقود
 الجمان في وقائع الأزمان) ، وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر،
 وليست له أية علاقة بكتابه بدائع الزهور الكبير أو النسخ
 المختزلة منه كما يذهب بعض الباحثين .

وله كتاب (فرقة الأمم في العجائب والحكم) وهو تأليف
 صغير في تاريخ العالم .

وكتاب (مرج الزهور في وقائع الدهور) وهو مؤلف شعبي في قصص الرسل والأنبياء عليهم السلام ، وهناك احتمال أن يكون هذا الكتاب لمؤلف آخر غير ابن اياس ، على الرغم من اشارته هو لبعض محتوياته في الفصل السابع من الجزء الأول لبداية الزهور .

وله أيضا كتاب (نشق الازهار في عجائب الأقطار) وهو كتاب في علم الفلك والهيئة وتركيب الكون ، وآثار مصر الفرعونية وملوكها . وذكر ابن اياس في مقدمته لهذا الكتاب أنه قصد من تأليفه أن يجمع فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى ولا سيما عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة - وكان فراغة منه سنة ١٥١٨ م ، وكثيرا ما استمد منه علماء أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي .

على أن شهرة ابن اياس تستند بالكلية الى كتابه المشهور بدائع الزهور ، اذ صار به عمدة المؤرخين في أحوال دولة المماليك وأخبارها مدة الطور الأخير ، والمرجع الرئيسي لحوادث فتح العثمانيين لمصر ، في أسلوب بديع - رغم ضعف اللغة - ولذا ميزه مارجليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين في مصر وغيرها بقوله : « ان أسلوبه في الكتابة والتأليف ، ونبطه في

التفكير ، ينم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأي قل أن
يقربه معظم المؤرخين » •

أما عن أخلاق ابن أياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به
من صفات عند معاصريه ، مادام الموجود من كتب المعاصرين
والمؤرخين لا ينبىء عنه بشيء البتة ، على أن كتبه التي ألفها ،
وملاحظاته التي أودعها إياها عن نفسه وعن حوادث عصره
ورجاله ، تدل على الكثير من كنه الرجل ، فضخامة مؤلفاته
برهان على أنه ظل طوال حياته مجدا في الكتابة ، ودأبه على
تدوين الحوادث يوما بيوم ، وشهرا بشهر في الأجزاء المعاصرة
من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق •

كما أن تناوله للحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية
أحيانا لاهماله رجاله مصالح المصريين وذلك برغم ما أحاط
السلطة العثمانية في القاهرة والعالم الاسلامي من رهبة يعطيه
مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين •

ونحن نرجح أن نقد ابن أياس لنظام الحكم العثماني كان
سببا جوهريا في خفاء ترجمته من كتب التراجم (١) •

(١) من الذين عاصروا ابن أياس من المؤرخين : عبد الرحمن السيوطي ،
وميد الباسط بن خليل ، وحسن الطولوني ، وابن زينك الرمال ، ومحمد بن
طهرون الصفتي •

السيوطي

موسوعي يرهق الباحثين !

عاصر ابن اياس صاحب بدائع الزهور أربعة من المؤرخين، وهم : عبد الرحمن السيوطي ، وعبد الباسط بن خليل ، وابن الطولوني (محمد بن طولون الدمشقي) وابن زبثل الرمال . ولكل من هؤلاء فضل يعرفه جل الباحثين في التاريخ الاسلامي ولهم السهم الظاهر فيما تجمع للتاريخ الاسلامي من تراث محفوظ ، وان كان لم يبلغ أحدهم مبلغ ابن اياس ، أو يقربه في المقدرة على التأليف الموسوعي في التاريخ ، ولعل ذلك راجع في المقام الأول الى أن ابن اياس قصر نفسه على الكتابة في ذلك الفرع وما يتصل به فقط ، هذا عدا نظمه للشعر التقليدي أحيانا، على حين أن معاصريه أولئك اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات .

ومثل ذلك جلال الدين السيوطي صاحب الأخبار الطوال

في أشتات العلوم في عصره ، فإنه لم يترك ميدانا من ميادين المعرفة دون أن يجري فيه قلمه ، هذا فضلا عن تداخله في بعض المسائل العامة في عصره .

ولد السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي ، سنة ١٤٤٥ م في القاهرة ، من أسرة ينتهي نسبها الى محلة الخضيرية ببغداد .

ويظهر لنا أن هذه النسبة ليست يعيدة من الشك ، على الرغم من أن السيوطي نفسه في كتابه حسن المحاضرة (١/ ١٥٥) أكد مرجحا هذا النسب ، ذلك أنه كان بأسيوط المصرية وبالقاهرة كذلك موضع اسمه الخضيرية زمن السيوطي ، ونعتقد أنه ربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب أرجاع أصله الى جهة بعيدة عظيمة الشأن ، لا سيما أنه جهد في أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك أنه انصاري جعفري الأرومة ، وأن جده من أم شرفة النسب .

جد السيوطي جاء الى أسيوط ، وعاش بها زمن الدولة الأيوبية ، وأقامت أسرته بها جيلا بعد جيل ، وأخرجت رجالا نابهين في المجتمع الأسيوطي في العصور الوسطى ، فمنهم نائب الحاكم (القاضي) ، والمحتسب ، والتاجر ، والمتمول الخير ، ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصري إبان قيامه على اخماد

ثورة الأحدب بالصعيد سنة ١٣٥٣ م ، فى عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد الذى تولى من ١٣٥١ م الى ١٣٥٤ م ، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والخانقاه المعروفين بسوقة منعم فيما بين الصليبة والرميلة بالقاهرة الحالية ، ولعل المزيد من التفاصيل يجدها القارئ فى المواعظ والاعتبار للمقريزى (١/٣١٣ ، ٤٢٠) ، وفى حسن المحاضرة للسيوطى (١/١٥٥) .

أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من أقام من تلك الأسرة بأسىوط ، انقطع من دون رجالها جميعا لطلب العلم والتعليم ، ورحل من أجل ذلك فى حدائته الى القاهرة ، وأفاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمير شيخو ، فتولى درس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بجامع أحمد بن طولون ، وألف كثيرا فى الفقه والنحو ، وتوفى عشر الخمسين ، سنة ١٤٥١ م ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين .

وقد قدم السيوطى لأبيه فى حسن المحاضرة ، وبغية الوعاة فى طبقات النجاة ترجمة شاملة ومفيدة . والسيوطى نفسه غنى بترجميه المعاصرين والمتأخرين والمحدثين ، اذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية فى حسن المحاضرة ، ترجمة فى كل من السخاوى ، والامام الشعرانى ، والغزى ، والبورنى ، وابن العماد الحنبلى ، وابن اياس ، وعلى باشا مبارك ، وأصحاب دائرة المعارف ، وفى ابن طولون الدمشقى صاحب الفلك المشحون ، وفى فيليب حتى .

الا أنه في الفلك المشحون إشارة الى ترجمة ذاتية أخرى
للسيوطي في كتابه بغية الوعاة ، غير أن المطبوع من هذا الكتاب
لا يشمل ترجمة له البته .

وذكر اليمنى في السنا الباهر (٧٧) أن للسيوطي ترجمة
ذاتية ثالثة في كتاب له اسمه التحدث بنعمة الله تعالى ، وهذه
عدا ما هنالك من تراجم أخرى بقلم تلميذه الشاذلي والداودي .

وكانت والدته عبد الرحمن أم ولد تركية ، أنجبته وأبوه
بالغ في السن مبلغ النضج ، فجاء عبد الرحمن ناضجا من يومه
على حد قول علماء الأجناس . وكانما توسم فيه والده شيئا من
ذلك ، إذ قربت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على الخمسين ،
فعنى بتعليمه أشد عناية ، وحفظه جزءا كبيرا من سور القرآن ،
واستصحبه أكثر من مرة الى مجلس ابن حجر العسقلاني
في علم الحديث .

وغدا الطفل عبد الرحمن محظوظا كذلك في أوصيائه ،
اذ لحظوه بزعايتهم ونظروهم ، ونجحوا في إلحاقه بوظيفة في
الجامع الشيخوني بعد وفاة أبيه ، ولا أعرف نوعية هذه الوظيفة
التي يلحق بها طفل في السادسة من عمره .

على كل تمكن عبد الرحمن أن يختم القرآن كاملا ، وهو
دون الثامنة من عمره ، فدل بذلك على ذاكرة قوية وحافظة

واعية . ثم أخذ في طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع
أو يتعاضده فن الا الحساب فانه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته
طبيعته ، والا المنطق فانه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه .

أما ما عدا ذلك من العلوم كالتفسير وعلم الحديث ، والفقه ،
والنحو والمعاني والبديع والبيان على طريقة أهل البلاغة من
العرب الفصحاء لا على طريقة العجم والفلاسفة ، والجدل وأصول
الفقه ، والتصريف والانشاء والترسل ، والفرائض والقراءات
والطب ، فالسيوطي نفسه قال في كتبه انه درسها حتى بلغ فيها
درجات متفاوتة في الكمال ، وانه رزق التبحر في السبعة الأولى
منها حتى فاق أشياخه كلهم فضلا عن هو دونهم علما وزمنا ،
وأنه اخترع علم أصول اللغة وورثه وانه وصل الى مرتبة
« المجتهد المطلق » في الحديث والفقه والعربية باجماع « آلات
الاجتهاد » كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب في اية مسألة مضمنا
بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ،
مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرة على ذلك كله تماما
في غير عناء . ولا غرو في ذلك مادام أن السيوطي نفسه قال
مرة لشيخه السخاوي وهو يحاوره نظما :

« علمي كبحر من الأمواج ملتطم » .

بلغ السيوطي ذلك المقام الزاخر من العلم مع المباهاة

العريضة بكيفية وكمه لديه بعد حياة دراسية طويلة بالقاهرة ،
وأسفار كثيرة في محافظات مصر وغيرها • وتفصيل ذلك بتقريره
أنه درس على ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد ،
وأنه سافر من أجل ذلك الى مراكز العلم بدمياط والاسكندرية ،
والمحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج وجاور سنة كاملة •
وقد تجمعت لديه أثناء ذلك كله براءات وشهادات واجازات كثيرة ،
أولها اجازة بتدريس اللغة العربية سنة ١٦٤١ م ، وعمره وقتئذ
سبعة عشر عاما ، ومن المعروف أنه بدأ التأليف تلك السنة بكتاب
في شرح الاستعاذة والبسملة •

على أن السيوطي لم ينصرف الى تدريس اللغة العربية
على ما يظهر ، بل باشر تدريس الفقه الاسلامي بالجامع الشيعوني
الذي لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ، وكان تعيينه هناك
بسفارة شيخه البلقيني سنة ١٤٦٥ م • ثم تصدى السيوطي
للافتاء واملاء الحديث ، بجامع ابن طولون سنة ١٤٦٧ م ، وأضيف
اليه تدريس الحديث ووظيفة الاسماع بالخانقاه الشيعونية
سنة ١٤٧٢ م ، بمساعدة الأمير اينال الأشقر أو السلطان
سيف الدين اينال الذي تولى من ١٤٥٣ م الى ١٤٦٠ م فيما بعد ،
كما تولى مشيخة التصوف بترية برقوق نائب الشام التي تقع
بباب القرافة الحالية ، بعناية ابن بلدته (أبو الطيب السيوطي) •

وبقى السيوطى متوليا تلك الوظائف كلها حتى ناهز الأربعين من عمره ، ثم نقل الى مشيخة الخانقاه البييرمية سنة ١٤٨٦ م ، وهى تعد أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافا فى عصره كما يقول المقرئى •

أما صاحب الفضل فى الحاقه بالبييرمية فهو الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباسى • ومن ثم انقطع السيوطى عن التدريس والافتاء والاملاء والاسماع ، وأخذ فى التجرد للعبادة كما قال الشعرانى ، أو أنه أنجم وتمشيخ على قول السخاوى . وشرع السيوطى منذئذ فى تحرير مؤلفاته ، وربما ألهاه التكائم عن الاتقان ، فلم يمعن فى بعض الأحيان ، بل جرى قلبه بالتأليف السريع حتى أربت كتبه على الخمسمائة ، سوى ما غسله وزجج عنه ، ولذا جاءت أكثر مؤلفاته جمعا لا تأليفا •

ولنا ملاحظة عابرة فى هذا المجال أنه لم تقتصر كثرة المؤلفات على السيوطى وغيره من المؤلفين المسلمين ، بل صدقت تلك الظاهرة كذلك على بعض المؤلفين الغربيين فى المصور الوسطى ، ومثال ذلك رافون لول الإيسائى ، اذ بلغت مؤلفاته خمسمائة تقريبا •

وهال المعاصرين للسيوطى والمتأخرين والمحدثين أن ينسب هذا الكم الضخم من المؤلفات الى مؤلف واحد هو السيوطى ،

وفسره مؤرخنا السخاوى بأن السيوطى اختلس من تصانيف ابن تيمية وابن حجر العسقلانى والسخاوى نفسه وغيره من المؤلفين ، من مجموعة عشر عليها كلها بمكتبة المدرسة المحمودية : وأنه عدل فيها يسيرا ، وقدم وآخر ، ونسبها بعد أن هول فى مقدماتها .

غير أنه مهما قيل فى هذا المجال ، فإن تهمة الاختلاس لا يمكن أن تنصب على جميع مؤلفات السيوطى ، بل لدينا من حقيقة الحالة العلمية فى عصر السيوطى ، وما يستطاع استنتاجه من نفسيته وعقليته وأخلاقه وأحواله ، ومن بساطة المسائل التى أفرد لها كثيرا من كتبه ، ومن أحجام تلك الكتب التى أدمجها فى تعداد الضخم ، ما يساعد على تعليل ذلك التكثر الخارق فى التأليف تعليلا معقولا .

ذلك أن عصر السيوطى وهو الحقبة الأخيرة من عهد المماليك بمصر المستقلة وهو عصر الجمع والتلخيص والتكميل والشرح والحواشى ، وليس به فى الواقع من المؤلفات - فيما عدا الكتب التاريخية - ما يصح أن يوصف بغير ذلك من الصفات .

ومثال ذلك من كتب السيوطى الكبرى كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى ، والمعروف أن السيوطى أنهاه فى أربعين يوما 11 ، وكتاب طبقات الحفاظ ، وهو تلخيص

وتكملة للذهبي ، وكتاب لب الباب في تحرير الانسان ، وهو اختصار لعز الدين بن الأثير ، واستغرق السيوطي في انجازه عشرة أيام فقط !!

ثم أن السيوطي اعتقد في نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق في الحديث النبوي الشريف والفقه واللغة العربية ، وأنه لو شاء أن يكتب في كل مسألة مصنفا تاما لاستطاع ، وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة للهجرة ، وأنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام وخاطبه في اليقظة والنام خمسين مرة ، فتطلبت منه تلك الدعاوى أن يكتب كثيرا ليدعم أقواله •

ونضيف الى ذلك أن السيوطي عاش غضوبا ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها في يوم أو ليلة • ليرد بها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه •

قال السيوطي نقلا عن الامام الشعراني في ذيل الطبقات الكبرى (ص ٤) : « وخالفني أهل عصرى في خمسين مسألة ، فألفت في كل مسألة مؤلفا ، بينت فيه وجه الحق » •

وهذا عدا ما كتبه لتبرير موقفه من مسائل معينة كما يذهب بدائع الزهور لابن اياس •

ومن الأمثلة الدالة على أثر ذلك كله في عدد مؤلفات السيوطي كتاب ارشاد المهتدين في نظرة المجتهدين ، وكتاب

الرد على من أخذ الى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ، وكتاب التنبئة بمن يعثه الله على رأس كل مائة ، وكتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف - وقد أشار السيوطي الى مسألة اجتهاده ومبعوثيه اشارات خفيفة في كثير من مؤلفاته غير أنه خلع النقاب تماما في هذا الكتاب ، اذ قال : « فان من ينفخ أشداقه ويدعى مناظرتي ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضني ويستجيش على بن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباء منثورا » (فيليب حتى في مقدمته لكتاب نظم العقيان) •

ومثال آخر كتاب تنوير الحلك في امكان رؤية النبي والملك • ثم انه دأب على التدخل في المسائل العامة في عصره ، ومثل ذلك قيامه في مسألة الشاعر ابن الفارض سنة ١٤٧٠ م ، وكتابته في ذلك مقامة اسمها قمع المعارض في نصرة ابن الفارض ، وافتاؤه من غير تفويض بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة ، لأن الاجماع منعقد على منع البناء في شطوط الأنهار الجارية ، وله في ذلك كتاب •

ثم ان السيوطي أحب التسلي بالكتابة في موضوعات واهية تافهة ، ومثل ذلك كتاب الأسفار عن قلم الأظفار ، وكتاب

الايضاح في علم النكاح ، وكتاب بلوغ المآرب في قص
الشارب ، وكتاب الوديك في فضل الديك ، وكتاب مسألة ضربي
زيدا قائما ، وكثير من هذا لا يعدو كراسة أو رسالة صغيرة
أحيانا .

ومهما يكن فليس لجميع جولات السيوطي في علوم عصره
ومسائله الخاصة والعامة متسع كاف بهذه الدراسة الموجزة ،
اذ البحث محدود بعنوانه حيث أننا قصرنا الكلام على الجانب
التاريخي فقط ، وتعريفنا بالسيوطي أردنا به تقديره بين
المؤرخين بمصر الاسلامية في حقبة معينة وايضاح ذلك ،
فيجب الا تغطي كثرة القول في غير ذلك من اشتات نشاطه
على ما هنالك من غرض أصلي ، وهذا بالاضافة الى أن مؤلفاته
التاريخية ليست سوى شيء قليل بالقياس الى كتبه في غير
التاريخ من العلوم . ومن تلك المؤلفات :

— كتاب : « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » وهو
من أشهر ما كتبه في التاريخ ، تناول في الجزء الأول منه
ما ورد عن مصر في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
وعند المؤلفين القدامى ، وتاريخ مصر منذ الخليقة ، وما بها
من عجائب ، ثم ما كان من فتوح مصر ، وما أقامه المسلمون
من منشآت . ثم أشار الى من كان بمصر من طبقات الفقهاء

والمحدثين والزهاد والصوفية وأئمة النحو واللغة والحكماء
والأطباء والمنجمين والقصاصين والمؤرخين والأدباء •

وعالج السيوطى فى الجزء الثانى أمراء مصر حتى زمن
الفاطميين ، ثم أورد باختصار تاريخ الفاطميين والأيوبيين ،
وأشار الى انتقال الخلافة العباسية الى مصر ، والى ما كان
للسلاطين المماليك من نظم ورسوم وتقاليد ، ووصف معالم مصر
فى زمنه ، كالجوامع والمدارس • وفيضان النيل ، وما كان بمصر
من أشجار ونباتات وخضراوات • يضاف الى ذلك اهتمامه
بفئات القضاة على اختلاف مذاهبهم ، وهذا الكتاب له طبعة
بالحجر بالقاهرة سنة ١٨٦٠ م ، وعن هذه الطبعة جرى نشره
سنة ١٢٩٩ م ، ١٣٣١ هـ بالقاهرة • والجديد بالذكر أن هذا
الكتاب ألفه السيوطى على عهد السلطان قايتباى ، واعتمد فى
تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفا عددها فى مقدمته •

— كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين •

— كتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباى •

— كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور وهو كتاب شعبى
فى التاريخ العام •

— كتاب تاريخ أسيوط •

— كتاب كوكب الروضة وهو تاريخ جزيرة الروضة المصرية الواقعة جنوبى القاهرة ، ألفه السيوطى سنة ١٤٨٩ م ، ونقل فيه كثيرا مما كتب المقرئى فى هذا الموضوع •

— كتاب تاريخ العمر وهو عبارة عن ذيل على كتاب (ابناء العمر فى ابناء العمر) لابن حجر العسقلانى •

— كتاب المنتقى من تاريخ ابن عساكر •

— كتاب الشماريخ فى علم التاريخ وهو عبارة عن رسالة قصيرة فى أصل اتفاق المسلمين على جعل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ للتأريخ الاسلامى ، واجماعهم على اعتبار شهر المحرم أول الشهور الهجرية ، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية •

وللسيوطى عدا ذلك كتب كثيرة فى التراجم والطبقات ومنها :

— كتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان •

— كتاب بغية الوعاة فى طبقات النجاة •

— كتاب الملتقط من الدرر الكامنة •

هذا فضلا عن مؤلفات فى سائر علوم عصره •

وقيل بحق أن السيوطى لم يكن مؤلفا فى معظم الكتب التاريخية التى صنفها وغير التاريخية ، بل انه جمع فأوعى فقط ، واختصر ولخص فحسب ، وربما نسب لنفسه مؤلفات لغيره ، كما قرر السخاوى •

على كل فليس ذلك بالقليل أو بالغريب فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، ولم يسلم من هذه التهمة كل من المقرئى وأبى المحاسن بن تغرى بردى وهما من أساطين المؤرخين بمصر الاسلامية • ثم انه ليس من الانصاف فى شئ أن يقاس السيوطى وغيره بمقاييس اليوم ، بل ان فضل السيوطى فيما صنع على وجه العموم واضح وان جاء فضلا مشوبا ، اذ حفظ الرجل بتلك الطريقة كتباً مفقودة أصولها حتى الآن ، ولولا قلمه لما وصل منها شئ للمتأخرين •

ثم ان السيوطى وضع بطريقته الخاصة هذه حال العلوم والعلماء فى عصره ، وثقق كتباً ظلت بعيدة عن متناول الناس العامة لندرتها أو ضخامتها ، وانتشرت تلك الكتب فى قلوبها المختصر الى جميع البلاد الاسلامية ، من المغرب العربى الى الهند واليمن ، وذاع معها صيت عالمنا الموسوعى السيوطى ذيوفا يشهد به وجود الكثير منها بخطه ، فى مختلف المكتبات الاسلامية وغير الاسلامية القديمة ، ولاسيما بالهند •

ومما أعان السيوطى على التفرغ لكتابة ما كتب من مؤلفات

ضخمة ورسائل صغيرة ، أنه ظل طويلا على مشيخة البيبرسية متمتعا بوظيفة وافرة ، منذ توليها أواخر عهد قايتباي - وهذا على الرغم من قيام بعض أعدائه من القضاة وغيرهم بالوقية به عند ذلك السلطان الطيب . غير أنه أغضب قايتباي آخر سنة من حكمه (١٤٩٥ م) ، بسبب طلوعه الى حضرته في مسألة وعلى رأسه الطيلسان ، مخالفا بذلك التقاليد المرعية ، ومع أنه عوتب على مخالفته ، فانه أصر على صحة موقفه وكتب في ذلك رسالة اسمها « الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان » .

وامتنع السيوطي من بعد ذلك عن الطلوع الى السلطان ، بل رفض أن يصاحب العلماء لتهنئة قايتباي بالشفاء من مرض ألم به ، محتجا بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنة ، وألف في ذلك كتابا سماه « رواة الأساطين في عدم المجيء الى السلاطين » .

ومع هذا كله بقي السيوطي على وظيفته الحكومية بالبيبرسية حتى وفاة قايتباي سنة ١٤٦٨ م ، غير أنه أفسح المجال لأعدائه بموقفه هذا كي يدسوا عليه ويؤججوا نار الفتنة بين السلطان الجديد محمد بن قايتباي الذي تولى من ١٤٦٨ م الى ١٤٩٥ م ، وكانما أحسن السيوطي بما سوف يتاله قريبا من عزل عن وظيفته الرغيدة ، فحسن للخليفة

المتوكل على الله عبد العزيز العباسي سنة ١٤٩٦ م أن يوليه قاضيا كبيرا على جميع القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الاسلامية المجاورة ، وأن يجعل بيده الولاية والعزل فيهم مطلقا ، وهي وظيفة لم يحرزها قط في العالم الاسلامي سوى القاضي تاج الدين ابن الأعز في الدولة الأيوبية ، بعد أن صار لتلك الدولة سيادة فعلية في جميع بلاد الشرق الأدنى . على أن السيوطي لم يفكر في هذه الوظيفة لتكون له مخرجا من البيرونية فحسب ، بل يظهر أنه أراد أن يستخدمها في النيل من أعدائه ، وربما رأى فيها تحقيقا لما قال من وجوب قيام الخلافة القطبية الباطنة فوق الخلافة العباسية الظاهرة !!! ولنراجع في ذلك كتاب السيوطي (التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة) (دار الكتب المصرية رقم ٩٨ مجاميع) .

ثم قامت القيامة بين القضاة والناس ، حين شاع أن الخليفة السلطان عهد للسيوطي بهذه الوظيفة ، وما زال القضاة بالخليفة حتى أشهدوا عليه بالرجوع عنها ، واعترف للملا بأن السيوطي هو الذي اقترحها عليه كما يسجل ذلك ابن اياس في بدائع الزهور (٣٠٧/١) .

ثم حدث في سنة ١٤٩٧ م ، أن قطع السيوطي جميلة الصوفية في الخانقاه البيرونية ، بحجة أنهم خانوا طريقتهم

ونسوا صوفيتهم ، فثار ثأرهم عليه ، وحملوه بأثوابه وربوه
بفسقية الخانقاه ، وكادوا أن يقتلوه .

هنا اغتتم أعداؤه هذه الفرصة ، ومنهم الأمير طومان باى
الدوادار وأعتقد أن هذا الأمير هو نفسه الذى حاول القيام
بانقلاب ضد أشرف جانبلاط سنة ١٤٩٩ م ولكن الأمر لم
يستقر له الى أن تولى الغورى عرش البلاد .

المهم أن السيوطى حوكم ، وانهى القضية بأنه طماع
وأن طعمه أفسده ، وأن تفكيره فى الاستيلاء على دراهم
الصوفية الفقراء جعله غير صالح للبقاء فى مشيخته ، ولذا عزل
من منصبه .

واعتكف السيوطى فى بيته بجزيرة الروضة المصرية كما
يؤكد ابن اياس فى بدائع الزهور (٣٣٩/٢) ، وفيليب حتى فى
مقدمة العقيان (ص ز) ، حتى انه لم تفتح شبائيكه المطلة على
على نهر النيل مدة ، وكتب رسالة اسمها « تأخير الظلامة الى
يوم القيامة » على أن محنته لم تنته بتلك الحادثة ، اذ تسلم
طومان باى الدوادار سنة ١٥٠٠ م ، وخاف السيوطى بطشه ،
فاختفى بجهة غير معلومة واعتقد أنه هرب الى أسبوط ، وظل
مختفيا شهورا حتى وفاة السلطان وتولية قنصوه الغورى بعد

• أواخر تلك السنة • وعندئذ رجع السيوطى الى داره بالروضة •
غير انه فضل البقاء في عزلته ، ولم يقبل أن يعود الى الحياة
العامة ، اذ عرض عليه الغورى وظيفة المشيخة بمدرسته ومدفنه
بالقبة الزرقاء فرفض السيوطى معتذرا •

ومازال على انزوائه حتى قابل باريه سنة ١٥٠٥ م •
وللسيوطى قبر بأسيوط يزار ، ولكنه ليس قبر عالمنا السيوطى
فالمؤكد أنه دفن بحوش الأمير قوصون ، خارج باب القرافة
بالقاهرة •

وصناعة التاريخ !

المؤرخ الذى معنا عاصر ابن آياس بن تغرى بردى وعاصر بالتالى السيوطى واسمه عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فهو سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة المملوكية منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل . . .

أما أبوه فهو الأمير المحدث خليل بن شاهين الذى عاصر المملىزى وهو مؤرخ بارز مشهور .

ولد ابن شاهين سنة ١٣٨٢ م ببيت المقدس الشريف ، حيث عاش أبوه (جد عبد الباسط) أميراً من أمراء المماليك فى تلك النيابة الفلسطينية . وجاه ابن شاهين إلى القاهرة فى شبابه ، فدرس الحديث على ابن حجر العسقلانى ، غير أنه ترك مناصرة المعلم ، والتحق بالفرقة المملوكية المسماء اسم فرقة أولاد الناس ، وهى الفرقة المختصة بأبناء الأمراء من المماليك .

وسرعان ما مضى ابن شاهين قدما فى طريق الوظائف الحكومية ، حتى انه جمع فى يده سنة ١٤٣٤ م وظيفة النائب والحاجب والمشد بالاسكندرية ، ويرجع بعض الفضل فى ذلك التعدد الى أنه كان ~~حما~~ ^م ~~للسلطان~~ ^{برسباى} الذى قفز للعرش المملوكى سنة ١٤٢٢ م وظل به الى سنة ١٤٣٨ م . وتقلب ابن شاهين بعد ذلك فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام ، حتى اذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق (تشمق) برتبة أمير مائه مقدم ألف ، وهى أكبر رتبة حرية فى دولة المماليك الأولى .

ولابن شاهين عدة مؤلفات الا أن أهمها كتابه (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) الذى يقع فى مجلدين ، ثم جرى اختصاره فى مجلد واحد ، يضم اثنى عشر فصلا ، وهو الذى بقى حتى الآن . وفيه تناول الدستور المملوكى ، وبين الوظائف ، وما يتحصل من الأموال ومصارفها ، وما يتصف به المملك والملوك ، وأورد وصف الوظائف الدينية ، وما كان للخليفة والقضاة من سلطان . وشرح ما كان من اختصاص الوزراء ونائب السلطنة وأتابك العساكر والأمراء على اختلاف درجاتهم ، وفتايت الجيش المملوكى ، والعاملين بالدور السلطانية ، وما يتصل بها من التيوتات والمطابخ والاصطبلات . ووصف القائمين على حراسة الجسور ، والولاة والموظفين بأقاليم الديار

المصريّة والشاميّة ، فضلا عن أمراء العربان والأكراد والتركمان ، وما كان من علاقات مصر مع اليمن وديار بكر وقبرص . وختم ابن شاهين كتابه بما أورد من نوادر لحكام مصر منذ عهد الفراعنة حتى عصره .

ولهذا الكتاب أهمية خاصة في دراسة نظم الدولة المملوكية ووظائفها ورسومها ولاسيما في العصر المملوكي الثاني .

ولابن شاهين كتب في الفقه والتفسير والتاريخ والتعير يعرفها كل دارس لهذه الفترة - وكانت وفاته سنة ١٤٦٨ م في شهر نوفمبر .

نعود لابن عبد الباسط بن خليل بن شاهين الخنفي لنقرأ أن أمه هي الأميرة (أصيل) أخت امرأة السلطان برسباني . أما مولد عبد الباسط فيرجع الى سنة ١٤٤٠ م ، بملطية ، حيث كان أبوه متوليا نيابتها من قبل السلطان حقيق وتقع هذه البلدة قرب أطراف آسيا الصغرى .

• وقضى الطفل والشاب عبد الباسط حياته الأولى متنقلا بين البلاد التي اتفق لأبيه الإقامة فيها موظفا مرضيا عنه ، أو طرخانا منسيا أو مفضويا عليه كأي موظف في السلطة المملوكية . تنقل مع أبيه بين حلب البسيورية والخليل الأردنية ،

والقدس الفلسطينية ودمشق السورية وبغداد العراقية والقاهرة
المصرية ومكة الحجازية وطرابلس اللبنانية والليبية ، فتلقى علوم
عصره على يد شيوخ مختلفين ، ومنهم أبوه نفسه لذى أقرأه
الكثير من الكتب فى شتى العلوم والفنون ، كما علمه اللغة
التركية .

وشغف عبد الباسط كآيه بالحصيل الواسع ، فذهب
مثله الى بلاد كثيرة من المغرب لم تعينها مراجع هذا العصر ،
وتلقى هناك دروسا فى النحو وعلم الكلام والطب ، وواضح أنه
لثقتها جمعا . ثم استقر أخيرا فى القاهرة ، بعد وفاة أبيه
خليل سنة ١٤٦٨ م ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتبصيف ،
وتعرف الى السيوطي متولى مشيختها ، والى يونس الرومي عالم
المنطق وتزل القاهرة ، وسمع كذلك على غيرها من علماء
القاهرة ، واعتبره البخاوى مؤرخنا المشاكس من تلاميذه فى
علم التاريخ .

واشتغل عبد الباسط بعد ذلك بالتأليف فى مختلف العلوم
والفنون ، ونظم وشرح غير أن المراجع التى بين أيدينا لا تبنى
بشئ يدل على غير ذلك من عمل رسمى . وظف عليه فى الدولة
المنلوكية . ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ : (نزهة الأساطين
فمين ولى مصر من السلاطين) .

- وكتاب (نيل الأمل) وهو تكملة لتاريخ النجاشي •
- وكتاب (الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم) وهو ذيل لتاريخ أبي المحاسن بن تفرى بردى المشهور •
- وكتاب تاريخ الأنبياء الأكابر وبيان أولى العزم منهم •
- وله عدا ذلك كتاب الوصلة في مسألة القبلة •
- وكتاب الحكمة والسر في كون الوضوء •
- وكتاب القول المسانوس •

• وكتاب شرح القانون في الطب •

• وكتاب عمدة الطالبين ورغبة الراغبين في الفقه •

ووفقا لمعلوماتي ان هذه المؤلفات جميعها لا تزال في ظلمات المخطوطات ، بمختلف مكتبات الشرق والغرب ، ما عدا الكتاب الأخير منها فانه مطبوع طبعا مقيما الا أنه أعيد طبعه أكثر من مرة بتحقيقات مختلفة •

ولعبد الباسط فوق هذا نظم جبعثر في كتب معاصره ، ولاسيما ابن اياس الذي كتبه بلطخ « شيعنا » في تاريخه أكثر من مرة ، ولا بد أن مؤلفات عبد الباسط تتسلسل في بعض كتبنا ، وعن ذلك النظم أبيات في معاصرات شتى مثل :

• وفاة النيل بعد توقف طويل سنة ١٤٩٣ م •

• وقرينة في وفاة السيوطي سنة ١٥٠٥ م •

وفي هذين المثليين وغيرهما دليل على أن عبد الباسط عاش كآبى اياس وأبى المحاسن بن تغرى بردى بين رجال الأدب المتقنين فى هامش البلاط السلطاني ومجتمعات الخاصة فى دولة المماليك •

والواقع أن عبد الباسط مشابه لابن اياس فى كثير من الوجوه ، فكلاهما ابن أمير مملوكى ومن أولاد الناس على قول مصطلح العصر ، وكلاهما مؤرخ وشاعر • على أن عبد الباسط امتاز عن ابن اياس بأنه ألف فى غير التاريخ من علوم زمنه ، كما امتاز على سائر عليناء غلماء عصر وأهل القلم من المعاصرين له بأن ما لدينا من نماذج قلمه خلو من التهامى والمديح ، بل يدل على أنه عاش منعزلا مترفعا ، وجاء ما كتبه فيه كل من السخاوى وابن اياس مصداقا لذلك تماما ، اذ قال السخاوى عنه أنه كان إسنائه ساكنا أصيلا منجمعا عن الناس ، ووصفه ابن اياس بأنه كان طويل القامة ، نحيف الجسد ، يربى ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جدا وكان ضنينا بنفسه ، وعنده يمس طباع مع شعهم زائد ، وكان

معظمًا عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية ، وفيه
جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف •

وكانت وفاة عبد الباسط سنة ١٥١٤ م ، بعد مرضه
بالسل الرئوى مرضا ألزمه داره أكثر من حول كامل ، ويلاحظ
أن وفاته حدثت والمائة العاشرة للهجرة كرت من أعوامها
عشرون ، أى أنه كان من رجال القرن العاشر بقدر ما هو من
أهل القرن التاسع •

مهندس يحترف التاريخ

الرجل الذي نكتب عنه الآن تلميذ من معاصري ابن لياس وهو أكثر خضرة من عهد الباسط .

كان مولده سنة ١٤٣٢ م واسميه : حسن بن حسين الطولوني من أسرة يرجع أصلها الى زمن الدولة الأيوبية ، واشتغل كثير من أبناء تلك الأسرة بالهندسة والمعمار ، فكان منهم غالبا « معلم المعلمين » ، وهو كبير المهندسين في مصطلح الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ، ووردت هذه الوظيفة باسم معلم للمعمارية في أبي المحاسن في النجوم الزاهرة وباسم معلم السلطان في قصص المرجع وعليه الممول في العمائر السلطانية .

واستقام الحظ المادي تماما لهذه الأسرة في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، حين تزوج السلطان برقوق الذي تولى حكم مصر من (١٣٨٢ م) الى (١٣٩٩ م) من أخت معلم المعلمين أحمد ابن الطولوني ثم من ابنته بعد طلاق عمتها ،

وأحمد هذا جد حسن بن الطولوني ، فلما جمعه السلطان
برقوق من أمراء المماليك برتبة أمير عشرة ، تزييا بزي الأتراك ،
وصار بذلك انسباً فاجحاً ، وظل على امرته ووظيفته حتى وفاته
سنة ١٣٩٨ م وهي السنة التي مات فيها برقوق .

نشأ حسن بن الطولوني على مهنة آباءه ، ودرج في عزهم
وجاههم وليس في المراجع التي اعتمدت عليها ما يدل على شيء
البتة بصدد حسين أبي حسن بن الطولوني الذي تترجم له في
هذه السطور القليلة ، وربما كان كذلك من رجال المعمار .

ألا أن حسن بن الطولوني مال إلى الفقه والتاريخ والأدب
والغناء والفروسية ، وهو ممن عدهم السخاوي من تلاميذه في
علم التاريخ ، ويظهر أنه اشتغل بوظيفة معمارية صغيرة في أول
أمره . ثم وقعت الفتنة التي أدت إلى اعتلاء السلطان سيف الدين
إينال عرش الدولة المملوكية من ١٤٥٣ م إلى ١٤٦٠ م بعد أن
أطاح بعثمان بن جقمق الذي لم يكمل العام في الحكم — وعمل
فيها حسن بن الطولوني بأن أشرف على حصار قلعة الجبل
حتى سلمت حاميتها ، فجازاه إينال بأن عينه على وظيفتي معلم
المعلمين وإدارة المصنع . وشغل المعلم حسن الطولوني الوظيفة
الأولى من هاتين الوظيفتين (١٧ عاماً) ، تخللتها جهود السلاطين
إينال (١٤٥٣ م) وأحمد بن إينال (١٤٦٠ م) وخشقدم
(١٤٦١ م) وطياي (١٤٦٧ م) ، وتيمورلنجا (١٤٩٥ م) ،

وقايتباى (١٤٦٩ م) حتى سنة ١٤٦٩ م ، فعزل عنها ذلك لسبب لم تذكره المراجع . ثم اعاد السطان قايتباى الى تلك الوظيفة بسفارة الأمير يشيك ابن مهدى الدودار ، فقام على عمائر السطان خير قيام ، ومنها جامع الروضة المعروف بالمقسى على شاطئ النيل ، وهو الجامع الذى تم بناؤه سنة ١٤٩٠ م ، وأفتى بسببه السيوطى نكابة فى قايتباى بأن الاجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية .

وظل ابن الطولونى متمتعا برضا السطان قايتباى ، وحظى عنده حتى أصبح وسيلة الناس لديه ، وسكن الروضة حيث الجامع السلطانى ، وأقام به الأذكار والاحتفالات الدثية الحافلة ليلة الرابع عشر من كل شهر هجرى ، وأحضر قراء القاهرة المشاهير ، ومؤذنيها ، وعلماءها ، ووعاظها ، ليشبع بهم حبه فى أنغام القراءة والأذان والوعظ . وحج ابن طولون سنة ١٤٩٢ م موسميا ، ورافقة السخاوى فى ركب ذلك العام ، فرأى من خير معلم المعلمين واحسانه وحسن هيئته ما لم يجد له نظيرا بين حجاج تلك السنة . ثم توفى السطان قايتباى سنة ١٤٩٥ م ، فظل المعلم حسن الطولونى على وظيفته ، بل ولاة السطان محمد بن قايتباى نيابة القلعة كذلك ، فوجد خادما مخلصا لقيامه بتحصين القلعة تحصينا عظيما أثناء فتنة الأمير قنصوه سنة ١٤٩٨ م .

ولابن الطولوني في التاريخ كتاب (النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية) وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الاسلام ، وينتهي بحوادث السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك بنصر .

والراجع ان للطولوني كتابا ثانيا في التاريخ على صورة المذكرات أو اليوميات ، غير أنه لا يوجد ما يدل عليه حتى هذه الأيام سوى قول ابن اياس في ترجمته لابن الطولوني أنه أنشأ تاريخا لضبط الوقائع (بدائع الزهور ٣/ ١٠٧) و يرى أن هذا الكتاب مدفون في المجموعات الخطية التي تملأ مكاتب المصالح .

ولابن الطولوني عছدا ذلك شرح مقدمة أبي الليث والاجرومية . وعاش ابن الطولوني حتى سنة ١٥١٧ م ، أي أنه أدرك لفتح العثماني لمصر والشام ، غير أنه عصى قبل ذلك بمدة طويلة وعزل عن وظيفته العسكرية ، واستقر فيها بعده ابنه شهاب الدين أحمد ، ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين (المهتممين) والصناع الذين ضلهم السلطان سليم الاول العثماني من القاهرة الى اسطنبول ، ليقوموا له هناك بمثل ما وآه بعاصمة المماليك من الجاني والمحمائي ، ثم وجع مع الراجمين من المصريين غنيبا الى القاهرة باذن السلطان التتالي .

عثماني يؤرخ لمصر العثمانية

في يدائع الزهور لابن اياس الجزء الخامس منه
(ص ٢٢٤ - ٢٢٨) ثبت يستغرق أربع صفحات كاملة من
تاريخه الكبير فيها اسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين
ذهبوا الى اسطنبول ، ثم رجعوا عنها الى القاهرة بعد قليل ،
وفيه اسماء غيرهم من الشخصيات الكبرى والصغرى وأولهم
المخليفة المتوكل العباسي .

وليت ابن اياس ذكر من ضمن هؤلاء أحمد بن زنبيل
المحلي الرمال ، الرجل المؤرخ الذي عاصر ابن اياس ، ليته
أورد بشأنه خبرا واحدا ، وكان المراجع التي بين أيدينا تحالفت
كلها كي ترهقنا معها ونحن نحاول التعرف بالرجل ، كل
ما نعرفه انه كان موطئا بديوان الجيش العثماني في وقت ما ،
وأنه رافق جيش سليم الأول أثناء الحروب التي انتهت دولة
المماليك في مصر والشام ، وأنه حضر جنازة طومان باي آخر

سلاطين الممالك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان
العثماني .

ولابن زنبيل كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة
(الممالك) ، وهو سجل واف لحوادث الفتح العثماني ، من
يوم خروج السلطان قنصوه الغوري من القاهرة للقاء العثمانيين
بشمالي حلب ، إلى يوم رجوع سليم منتصرا إلى انتطبول .
ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كتب نسخ شعبية
ما برحت تسليق المقاهي بالقاهرة منذ القرن السادس عشر
الميلادي ، وترجمه السهيلي إلى التركية في القرن السابع عشر ،
ضمن كتاب له اسمه الدرة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة ،
واعتمد عليه مارسيل ، أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على
مصر ، في كتابه الذي ألفه في تاريخ مصر الإسلامية ، ولا يزال
مرجعا من الدرجة الأولى حتى الآن . وتوجد من هذا الكتاب
نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة
والخاصة ، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعاً رديتاً ، وربما عني
به المعنيون بتاريخنا المصري الإسلامي قريبا ، لتكون منه
نسخة منشورة نشرها نهائيا مقارنا ، يطمئن إليه المؤرخون
اطمئنانا عليا .

ولابن زنبيل عدا ذلك من المؤلفات كتاب في التاريخ باللغة

التركية ، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين في زمنه ،
وكتاب تحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من العجائب
والغرائب ، وهو في الجغرافية ، وكتاب المقالات في حل
المشكلات ، وهو في علم الخط والرمل والتنجيم ، وكلها
مخطوط مهمل اهمالا تاما . والمعروف كذلك من أخبار ابن
زبل أنه بقى حيا يرزق من وظيفته بديوان الجيش العثماني
سنة ١٥٤٤ م ، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبي قير الحالية قرب
الاسكندرية ، وأنه توفي بعد سنة ١٥٥٢ م .

الفهرس

الصفحة	
٥	تقديم
٩	تمهيد
٥٧	مؤرخ امله التاريخ : الكافيحي
٧٥	مؤرخ بين الخطط والملوك : احمد بن على المقریزی
٩١	مؤرخ يكتب عن نجومنا الزاهرة : ابو المحاسن بن تغری بردی
١٠٥	مؤرخ هوايته ان يشاكس : السخاوی
١١٣	مؤرخ بين البدائع والوقائع : ابن ایاس
١٢٧	موسوعي يرهق الباحثين : السيوطی
١٤٥	الأب والابن : وصناعة التاريخ !
١٥٣	مهندس يحترف التاريخ : حسن بن حسين الطولونی
١٦١	
	(م ١١ - مؤرخون مصريون)

صدر من هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر ،
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة ،
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى
عليه عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمى المطيعي ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي الأزمة الحياة الفكرية ،
د. علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ،
محمود فوزي ، ١٩٨٧
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القيساني ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،
د. نبيل رافع ، ١٩٨٨

- ١٣ - اكلوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة
الطولونية ،
د. سيده اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى ،
د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى في مصر :
دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى في مصر في العصر العثمانى ،
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية ،
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د. محمد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، امام
التصوف في مصر : الشعراى ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحف الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامي والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د. احمد
عيد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة ،
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : الفريد ج. بترل ، ترجمة : محمد فريد او حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : الفريد ج. بترل ، ترجمة : محمد فريد او حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر في عصر الاخشيديين ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون في مصر في عصر محمد علي ،
د. حلمي احمد شلبي ، ١٩٨٩
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمى المطيعي ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقي : نظرة على الاوضاع
الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومي ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع المصو
الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامي والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربيع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر
العثماني ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبد العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
د. إبراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتقديم : حسن حبشي ،
١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الاسلامي ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ،
(ابحاث الندوة التي اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الاعلى للثقافة ، في ابريل ١٩٩١) - اعدتها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن
الثامن عشر :
د. الهام محمد علي ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الابطاط في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم الصوري : ترجمة وتعليق : د. حسين
حبشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن التلم
المتوفية :
د. محمد علي أحمد شليبي ، ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الاسلامية واهل السنة ،
 د. سيده اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
 د. ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد الى التاميم
 (١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
- د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
 عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
 د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
 لمي المطيعي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
 تأليف : د. سيده اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
 وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر :
 د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة
 وثائقية ،
 د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧)
 د. نسيب صابر ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
 د. فريمان عبد الكريم احمد ، ١٩٩٣
- ٦٧ - مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
 (ابحاث الندوة التي اقامتها لجنة التاريخ والاثار بالمجلس)

الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في إبريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة : وتعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - أهل اللغة في الإسلام ،
تأليف : أ. س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية
لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني
د. سمير يحيى البخال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل اللغة في مصر في العصر الفاطمي الأول
د. سلام شافعي مصمود ، ١٩٩٥
- ٧٦ - دور التعليم المصري في النضال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د. سعيد اسماعيل علي ، ١٩٩٥

- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشى ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرقة الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو
الى نصر أكتوبر ،
د. رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
العثمانية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الإذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥
- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د. أحمد الشريفي ، ١٩٩٥

- ٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التلوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموائىء المصرية فى العصر العثماني ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
ج ٢ ،
د. منتهى اسكندر ، ١٩٩٦
- ٩٥ - مصر وافريقيا .. العصور التاريخية الافريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والأثار بالجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الافريقية بجامعة القاهرة) ،
رمضان

- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،
د. سمير يحيى الجبال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ،
أ. د. محمد ابراهيم بكر ، أ. د. ابراهيم نصحي ،
أ. د. فاروق القاضي ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم
رمضان .
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد
كفافي ، اللواء/ سمعة عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢ ،
د. تيسير أبو عرجة
- ١٠٣ - رؤية الجزيرة لبعض قضايا عصره ،
د. على يبركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢) ،
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ - السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ -
١٩٨٧) ،

د . أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ، ج ٢ ،
د . سليمان صالح

١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال

١٠٨ - مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش

١٠٩ - مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش

١١٠ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ١ ،

د . البيومي اسماعيل الشربيني

١١١ - مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ، ج ٢ ،

د . البيومي اسماعيل الشربيني

١١٢ - اسماعيل باشا صدقي ،

د . محمد محمد الجوادى

١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د . اسماعيل عز الدين

١١٤ - دراسات اجتماعية في تاريخ مصر
أحمد رشدى صالح

- ١١٥ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا
- ١١٦ - أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد
- ١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
- ١١٨ - النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د. البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٩ - النقابات في مصر الرومانية ((دراسة وثائقية))
حسين محمد أحمد يوسف
- ١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث (١٧٧٥ - ١٩٥٢) ،
أبريس جرجس
- ١٢١ - الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤) ،
محمد عبد الحميد الحناوى
- ١٢٢ - مصر للمصريين ج ٦ ،
سليم خليل النقاش
- ١٢٣ - السيد أحمد البدوي ،
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن ،
د. محمد نعمان جلال
- ١٢٥ - مصر للمصريين ج ٧ ،
سليم خليل النقاش
- ١٢٦ - مصر للمصريين ج ٨ ،
سليم خليل النقاش

- ١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
- ١٢٨ - معارك صحفية ،
جمال بدوى
- ١٢٩ - الدين العام (وآثره في تطور الاقتصاد المصرى)
(١٨٧٦ - ١٩٤٣) ،
د. يحيى محمد محمود
- ١٣٠ - تاريخ نقابات الفنانين في مصر (١٩٨٧ - ١٩٩٧)
سمير فريد
- ١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ - ١٩٥٨) ،
تأليف : جايل ماير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ١٣٢ - دار الندوب السامى في مصر ج ١ ،
د. ماجدة محمد محمود
- ١٣٣ - دار الندوب السامى في مصر ج ٢ ،
د. ماجدة محمد محمود
- ١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثمانى
للدارندلى ،
بقلم : عزت حسن أفندى الدارندلى ، ترجمة : جمال سعيد
عبد الفنى
- ١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية (في ضوء وثائق الجيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الرقاد
- ١٣٦ - أوراق يوسف صديق
تقديم : د. عبد العظيم رمضان

- ١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد الغنى الأشقر
- ١٣٨ - الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب في مصر ،
السيّد يوسف
- ١٣٩ - موسوعة الغناء المصرى في القرن العشرين ،
بقلم : محمد قابيل
- ١٤٠ - سياسة مصر في البحر الاحمر في النصف الاول من القرن
التاسع عشر ١٢٢٦ - ١٢٦٥ هـ / ١٨١١ - ١٨٤٨ م ،
طارق عبد العاطى غنيم بيومى
- ١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر ،
لطفي احمد نصار
- ١٤٢ - مذكراتى في نصف قرن ، ج ٤ ،
أحمد شفيق باشا
- ١٤٣ - دبلوماسية البطالة في القرنين الثانى والاول ق.م. ،
د. منيرة الهمشرى
- ١٤٤ - كشوف مصر الافريقية في عهد الخديوى اسماعيل
(١٨٦٣ - ١٨٧٩)
عبد العليم خلاف
- ١٤٥ - النظام الادارى والاقتصادى في مصر في عهد دقلديانوس
(٢٨٤ - ٣١١ م)
د. منيرة الهمشرى
- ١٤٦ - المرأة في مصر المملوكية
د. أحمد عبد الرزاق

- ١٤٧ - حسن البنا •
متى •• كيف •• لماذا ؟
د • رفعت السعيد
- ١٤٨ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية ،
تأليف : د • سمير فوزي ، ترجمة : نسيم مجلى
- ١٤٩ - العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر ،
حسام محمد عبد المعطى
- ١٥٠ - تاريخ الموسيقى المصرية (اصولها وتطورها)
د • سمير يحيى الجمال
- ١٥١ - جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة ،
السيد يوسف
- ١٥٢ - الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية
(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م ،
د • محاسن محمد الوقاد
- ١٥٣ - الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) ،
د • علية عبد السميع الجنزورى
- ١٥٤ - هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الاسلامية في
العصور الوسطى ،
د • علية عبد السميع الجنزورى
- ١٥٥ - عصر محمد على ونهضة مصر في القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ - ١٨٨٣) ،
د • عبد الحميد البطريق
- ١٥٦ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ج ٣ (في العصر
الاسلامى)
د • سمير يحيى الجمال

- ١٥٧ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الاسلامى
والحديث د ٤
د . سمير يحيى الجمال
- ١٥٨ - نائب السلطنة الملوكية فى مصر (من ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ /
١٢٥٧ - ١٥١٧ م)
د . محمد عبد الفنى الاشقر
- ١٥٩ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢) د ١
د . محمد فريد حشيش
- ١٦٠ - حزب الوفد (١٩٣٦ - ١٩٥٢) د ٢
د . محمد فريد حشيش
- ١٦١ - السيف والنار فى السودان
تأليف سلاطين باشا
- ١٦٢ - السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ - ١٩٥٢)
د . تمام همام تمام
- ١٦٣ - مصر والحملات الفرنسية
المستشار / محمد سعيد العشماوى
- ١٦٤ - الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الاعلى للثقافة
بالاتحاد مع معهد البحوث والدراسات الامريكية بجامعة
القاهرة » ٢٠ - ٢١ ديسمبر ١٩٩٧)
اعداد : ١ . د . عبد العظيم رمضان
- ١٦٥ - التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر
سامى سليمان محمد السهم
- ١٦٦ - مذكرات معتقل سياسى صفحة من تاريخ مصر
السيد يوسف

١٦٧ - الحركة العلمية والأدبية في الغسقاط منذ الفتح العربى
الى نهاية الدولة الاخشيدية

د. صفى على محمد

١٦٨ - مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى

رقم الايداع ١٣٣٢٨/١٩٩٩

الترقيم الدولي 4 — 6436 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

هذا الكتاب يعتبر دراسة قيمة تناولت عدد من المؤرخين المهمين من عصر الموسوعات بالتعريف والتوضيح والتحليل، وبعضهم أهمله التاريخ رغم أهميته مثل محيي الدين الكافيجي، صاحب كتاب «المختصر في علم التاريخ».

وقد خاض المؤلف في سيرة هؤلاء المؤرخين بالعرض والتحليل والنقد، وقدم لحياتهم ومؤلفاتهم بمقدمة تاريخية مهمة تناولت الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية في عصرهم، مما أثرى هذه الدراسة التاريخية.